الإسلامية والخلفية الواردة من علماء المصريات الجدد كانت العلمانية قد قطعت شوطاً لا بأس به . وبدا وكأن حقيقة فرعون موسى الشرير التاريخية لم تعد مهمة إلى درجة جديرة بإرهاق العقول فى التفكير فيها . فلقد ترك المجال واسعاً رحباً أمام العلوم الحديثة ، أى علم الآثار وعلم المصريات . والاكتشافات التى ولدتها هذه العلوم — وهاهنا أكتفى بذكر العثور على قبر توت غنخ آمون — أعادت إلى مصر الشعور واليقين بعمقها التاريخى المتأصل التليد . وهذه المعرفة بأقدمية مصر الثقافية ظهرت معينة ومريحة فى صراع مصر اليؤوس ضد الاحتلال الأوروبى ، وبالتالى ضيع التساؤل الممض عن حقيقة صورة مصر (كما تنشأ فى المصادر الإسلامية) أهميتها الملحة .

الياســـا

دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها

للدكتور/سعد بن محمد حذيفة الغامدى

(الياســـا)

دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها

مقدمـــة :

سبق أن طرقنا بعض المواضيع ، المتعلقة بشعب عرف فى التاريخ بـ (المغول) وهذه الكلمة لا تكاد تذكر إلا ويذكر معها أو يقترن فى الذهن بها اسم مشهور فى التاريخ هو «جينكيزخان» ، من تلك المواضيع ما يتعلق بتاريخ ذلك الشعب ، وكيف أسس هذا الخان دولتهم ، ثم فتوحاتهم شرقاً أو غرباً ، ومنها ما بحثنا فيه عن أرضهم وطبيعتها الجغرافية وغيرها ، ومنها ما درسنا فيه بعض عاداتهم وتقاليدهم ، ومعتقداتهم الدينية[١] .

أن الدارس لتاريخ هذا الشعب ، أو المطلع على ما صنف حولهم ، يجد أن هناك كلمة تتردد معه بين الوقت والآخر ، هذه الكلمة هى « الياسا أو اليساق أو الجاساق أو اليسق ... الخ » . لقد مر معنا ، فى بحث سابق كيف وحد جنكيز خان كافة قبائل الشعب المغولى ، المتناثرة فى كافة أراضى منغوليا ، تحت زعامته الفردية ، وحكمه المطلق . وقد كانت تعيش حياة مليئة بالحروب المتواصلة ، والغارات والأحن التى لا تنقطع بين قبائلها المختلفة وعشائرها وأسرها ، بل وحتى بين أبناء الأسرة الواحدة . بعد أن جعل الأمة المغولية قوة متحدة واحدة توج على رأسها خاناً ، ولقب « جنكيز خان » ، ذلك اللقب الرنان ، الذى يعنى من جملة ما يعنى « خان العالم ، أو حاكم العالم ، أو سلطان العالم ، والسلطان والملك المحيطى ... الخ »[٢] .

كان تنصيب جنكيز خان فى فصل ربيع عام ٦٠٢ هـ/١٢٠٦ م ، حيث تذكر مصادرنا أن هذا الخان قام ، عشية تتويجه الحاكم المطلق ، فى التاريخ

---

(١) مثل « سقوط الدولة العباسية » ١٤٠١ هـ و« أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى » ١٤٠١ هـ ، و« حياة جنكيز خان » ١٤٠٣ هـ (ترجمة) ومقالات فى بعض المجلات ، كمجلة كلية الآداب/جامعة الملك سعود وغيرها .

(٢) انظر : « سقوط الدولة العباسية » الفصلين الأول والثانى على وجه الخصوص .

المذكور ، باعلان ما عرف فى أوساط الدراسات المغولية بـ « الياسا » وهى مجموعة من القوانين والضوابط ، تحدد سلوك الفرد وتفرض عليه عقوبات معينة إذا ما خرج المرء عن اطارها وأرتكب ذنباً معيناً ، كما أن من تلك القوانين ما يحدد العلاقة بين الخان والشعب .

لقد جاءتنا « الياسا »[1] فى روايات متباينة تباين المصادر التى طرقتها ، كالأرمينيه والسريانية ، والإسلامية ، واللاتينية والصينية ، إذ أن من المصنفين من جاء ببعض فقراتها فى شكل بنود ، مثل ابن العبرى فى « تاريخ مختصر الدول والذى ترجم جزء منه تحت عنوان ملوك العرب » ومنهم من تناثرت فى مؤلفه ، كالجوينى فى « جهانكشاى » وويليم الربركى فى « رحلته .. » وجون الكربينى « فى تاريخه .. » وغير هؤلاء ، ومنهم من دمج ما قيل حولها فى مصنفه مع غيرها مما أثر من أقوال جنكيز خان وحكمه ، كرشيد الدين فى مؤلفه الموسوعى « جامع التواريخ » .

ان بحثنا هذا حول بعض فقرات « الياسا » ما هو إلا اجتهاد شخصى ، ومحاولة متواضعة لدراسة بنود من ذلك القانون ، الذى ينسب إلى الخان المغولى ، وأصبح يعرف بـ « الياسا » . وسوف أحاول فى هذه الدراسة ايراد بعض فقراتها ، كما جاءت عند مصنفينا ، بعد تنسيقها ومقارنة نصوصها عند هذا أو ذاك ، ووضعها فى صيغة بنود منفردة ، ثم أجعل صيغاً معينة لبعضها الآخر ، كاستنتاج شخصى مبنى على رواية ، فى مصدر ، وردت حوله ، كما ظهر لى ، مماثلة لما ورد نصها صريحاً ، بعد تقسيم تلك الفقرات كل حسب فئته . لعل هذه الدراسة حول بعض فقرات « الياسا » تكون بادرة لدراسة أوسع فى هذا المجال ، يقوم بها باحثون فى عالمنا العربى ، إذ لا أعرف ، حسب علمى القاصر ، أن أحداً قد تناول هذا الموضوع من الباحثين المحدثين العرب فى دراسة جادة وتحليلية .

(١) كلمة لها معان كثيرة منها : أنظمة ، قوانين ، محرمات ، محاذير ، مراسيم ، أوامر ونواه ، مقررات ... الخ .

إن هذه الدراسة عمل المجتهد ، إن أصبت فهذا توفيق من الله ، وأن أخطأت فعزائى أجر المجتهد الذى أخطأ .

الباحث

الرياض فى ١٨ شوال ١٤٠٨ هـ/٢ حزيران ــ يونيه ١٩٨٨ م

الدراسات السابقة :

طرق الباحثون المحدثون ، المستشرقون منهم على وجه الخصوص من ذوى الاهتمام بالدراسات المغولية ، هذه القوانين ، التى تنسب إلى الخان المغولى هذا ، بشكل أو بآخر ، فمنهم من ذكرها بصورة عابرة ، أدرج ذكرها فى معرض كلامه عن تاريخ المغول عامة ، أو تاريخ جنكيز خان خاصة حسبما يتطلبه بحثه ووجهته التى انتحاها[1] . ومنهم من أخذها من زاوية أكثر تفصيلاً وخاصة من خلال تأثيرها على مجتمع دولة أخرى ، مثل « بولياك وايالون » وتأثيرها على التنظيم العام لدولة المماليك ، وهذا ما سيرد معنا كله . كما أن من المستشرقين من تناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل ، وأوضح ظروفها ، وملابساتها ، وقسم فقراتها المختلفة إلى اختصاصاتها ، من هذه الفئة « جورج فرنادسكى » و « ريازانوفسكى » .

لعل الذى يهمنا ، فى هذه الدراسة ، هو ما طرقه أصحاب الفئة الأخيرة . لأننا لو رجعنا إلى « أ . ن . بولياك » لوجدنا أن ما كتبه عبارة عن بعض القواعد التى عمل بها سلاطين المماليك فى مصر ، وأن هاتيك القوانين مستمدة من « الياسا المغولية » ، حيث يشير إلى أنها كانت هى الأساس الذى بنى المماليك بعض أنظمتهم عليها ، وأتخذ المقريزى « الخطط » مصدراً أساسياً له . ومن المعروف أن المقريزى كان ينقل من مصنف سابق له ، وهو ابن فضل الله العمرى ، صاحب « مسالك الأبصار » ، ولكنه كما يبدو لى لم يشر إليه كمصدر له . وهذا ما سبقنى الاشارة إليه « ايالون » فى دراسته نظام المماليك فى مصر وأنها استمدت من « الياسا » ، وقد عمل مقارنة بين ما أورده

(١) C. Walker "Jenghis Khan"; B. Spuler "History of the Mongol", R. Fox, "Genghis Khan"; T Dupuy "The Military life of Genghis.. ", B. Vlad imirtsov. "The life of Chingis Khan". and others.

المقريزى والعمرى[1] . إلا أن دراسته ، وكما ظهر لى ، قد جاء مضمونها يختلف عن العنوان الذى جاءت دراساته تحتها . فقد جاء فى فقره (ا) مناقشات حول الروايات المتناقلة الواردة عند الجوينى والعمرى والمقريزى ، وكل واحد ينقل عمن سبقه ، وخرج بنتيجة هى أن الجوينى هو مصدر العمرى ، والأخير مصدر المقريزى . أما مقالته الثانية (ب) فهى تتعلق ببعض فقرات الياسا ، وما دار حول تنفيذ ماورد فيها من عقوبات ، وما يتعلق باتهامات كل فرد ، من أفراد الأسرة المنتمية إلى « جنكيز خان » للغير من المنافسين له فى السلطة ، بأنه اخترق أنظمة « الياسا » وقوانينها واضحت مسألة اتهام هذا الأمير أو ذاك باختراق « الياسا » وسيلة للنيل من الأعداء ، والاطاحة بهم ، ولينفذ فيه عقاب القتل[2] .

إضافة إلى الباحثين المذكورين هناك باحثون آخرون طرقوا هذا الموضوع بشكل أو بآخر . وأهم من بحث فيها ، فى نظرى ، رغم العديد من المآخذ عليهم ، حسب معرفتى البسيطة « جورج فرنادسكى »[3] و « فالنتن ريازانوفسكى »[4] . لعل أهم مميزات دراسة الأول ، كما ذكرنا آنفا ، أنه قسم فقرات « الياسا » إلى أقسام كل فقرة أو جزء حسب اختصاصه ، مستنبطاً الكثير منها من أفعال المغول ، وليس كنص بعينه كان قد ورد محدداً هنا أو هناك . فمن تلك الفقرات ، أو الأجزاء ما وضعه تحت : القانون الدولى ، أو القانون العام ، أو القانون الجنائى .. الخ . كما أدرج هذا المُصَنِّف أموراً فعلية قام بها المغول كشىء قانونى ، لم يرد ذكره كفقرات جاءت فى « الياسا » أو

(١) D. Ayalon, "The Great yasa of Ghingiz Khan" Studia Islamica 1971, Vol. 33. PP : 97-140 and Vol. 34, PP : 151-180, A & B.

وخاصة صفحات ١٠٦ وبعدها فى قسم (ا) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠١

(٣) "The Scope & Contents of Chingis-Khan's Yasa" Harvard Journal of Asiatic Studies, 1938, 3/337 - 360.

(٤) "Fundamental Principles of Mongol Law" Indiana, 1965

كبند من بنودها ، بل استنتاج شخصى ، كقوله ، فى الفقرة المخصصة للقانون الدولى ، بأن قتل الرسل محرم ، ثم استشهد بفعل « جنكيز خان » عندما غزا أراضى السلطان محمد خوارزم شاه ، انتقاماً لمقتل الرسل ، وتنفيذاً لذلك القانون ، حسب ما ذهب إليه المصنف[1] . ولقد جانبه الصواب ، كما يبدو لى ، فى هذه النقطة ، والتى لا تخص الموضوع الذى نحن بصدده ، ولحسن حظنا فقد سبق لنا مناقشة هذه المسألة فى بحث سابق لنا[2] .

أما الثانى ، « ريازانوفسكى » فقد أستعرض رواية مفادها : أن « جنكيز خان » أصدر قوانينه بعد أن أخضع ملوك المغول ، والتبت ، والصين ، ثم ظهر من تلك الرواية اشارة صريحة تقول بأن التأثير الصينى كان شديداً على هاتيك القوانين التىأصدرهاذلك الخان . ومع ذلك يذكر هذا المصنف بصريح العبارة ، وهو محق تماماً ، بأن المعلومات الدقيقة حول « الياسا » جاءت فى كتابات المسلمين ، عرباً أو فرساً . ثم يورد مصنفات هؤلاء بدءً بالجوينى ، ثم رشيد الدين ، ثم المقريزى ، ولكنه فات عليه أمر هام ، وهو أنه لم يشر إلى أن الأخير نقل عن العمرى نقلاً غير أمين ، وهذا ما أشار إليه الأستاذ « ايالون » ، آنف الذكر ، ثم خرج بتحديد لتاريخ اصدار تلك القوانين ، وهى ما بين سنوات ٦٠٣ ــ ٦١٥ هـ/١٣٠٦ ــ ١٣١٨م . قام هذا المستشرق فقسم « الياسا » إلى خمس مجموعات ، هى قوانين تتعلق بالحقوق المدنية ، وأخرى ضوابط عسكرية ، وثالثة جنائية ، ورابعة قوانين خاصة ، وخامسة قوانين تتعلق بالحقوق المطلقة للخان . وعلى هذا الأساس سار فى دراسته[3] .

هذا تقريباً استعراض سريع ومبسط ، وفى أشد اختصار لنا ، حول ما يتعلق ببعض الدراسات التى قام بها باحثون كان لهم شرف السبق فى هذا

(١) G. Vernadsky, "The Scop".: 346.

(٢) « أوضاع الدول الاسلامية ... » ٢١٥ ــ ٢٧١ .

(٣) Riasanovsky, "Fundumental.." 25 FF.

المجال ، مهما كانت دراساتهم ، لذلك ، رأيت لزاماً على ، ومن باب الإعتراف بهذا الشرف أن أنوه عن بعضهم مما وقع تحت يدى من أعمالهم ، وما تسنى لى الاطلاع عليه ، حسب باعى القصير جداً فى هذه الدراسة . ولكن أين مصادر معلومات أولئك ؟ وما هى ؟ وماذا قالت ؟ هذا ما سنقول شيئاً عنه فيما يلى ، ومن ثم سنجعلها مصدر مادتنا الأصلية ، بل الأولى .

بعد ذلك الاستعراض السريع إلى ما ورد فى هذا الموضوع من دراسات حديثة نعود الآن إلى استعراض مماثل لما أوردته مصادر مادتنا الأولية عن حقيقة « الياسا » . وسوف نبدأ من الشرق ، من المصادر الصينية ، حيث أعتمدت على ما أورده « ريازانوفسكى » فى مصنفه الوارد فى الحاشية الأخيرة . لذلك فإن ما يتعلق بما جاء فى المصادر المذكورة ، حول قوانين « جنكيز خان » وما نسب إليه من أقوال ، أو حكم ما ، قد أشار إلى هذه كلها مصنفنا هذا ، وطرق بعض الآراء التى جاءت فى هذا الشأن . فمن هذه الآراء ما قاله المتخصص فى الدراسات الصينية الأستاذ الدكتور « بُبُف Popov » ، والباحث فى القوانين التشريعية لدولة المغول فى الصين « يوان ــ تشه Yuan-Cheh » ، حيث أنه نفى بان تكون « الياسا » قانوناً تشريعياً . وقد دعم رأيه فى هذا الشأن ، بأنه لو كان هناك شىء من هذا القبيل لوردت ضمن القوانين التشريعية التى أصدرتها أسرة « جنكيز خان » المغولية ، التى حكمت فى الصين ، التى يظهر لنا أنها أعلنت عام ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م . ويشير هذا الباحث أن ما عرف بـ « ياسا جنكيز خان » ماهى إلا أوامر توجيهية أصدرها ذلك الخان ، حفظت فى الصدور ، ونقلت من شخص إلى آخر ، مشافهه ليس إلا ، ولم توجد فى شكل مدون ، وفى هذا الاطار وصلت إلى المؤرخين العرب ، ولكن بشكل مشوه جداً[1] . وقد فند « ريازانوفسكى » هذه الأقوال ، ويبدو أنه محق فى ذلك ، لأن هناك حقائق كثيرة تثبت أن « جنكيز خان » أصدر قوانينه وتشريعاته تلك ، ودونها ؛ كل ذلك ينافى ما ذهب إليه « بُبُف Popov » .

(١) Ibid, 25 - 26.

وهذه الحقائق أوردهامؤرخونا المسلمون المعاصرون ، الذين ذكرناهم سابقاً ، وأثبتوها فى مصنفاتهم . هذا ، بالاضافة إلى مؤرخين آخرين « صينيون ، وأرمنيون ، وروسيون ، بل ومغوليون » كما سبقنى بالاشارة إليها الأستاذ « ريازانوفسكى » ، اضافة إلى أن المصادر الروسية قد أطلع هو عليها ، كل هذه لم أستطع الحصول عليها لأسباب كثيرة ، كما أن له ميزة أخرى عنى ، فى هذه الدراسات ، أنه أعطانا وجهة نظر المصادر الصينية وما قالته مصادر المغول مترجمة ، فى هذا المجال .

تشير المصادر الصينية والمغولية القديمة إلى أن « يوان تناى ــ ترو/وهو جنكيز خان » أصدر قوانين فى أوائل فترة حكمه . من هذه القوانين ما يتعلق بعقوبات تنزل بمرتكبى الجرائم ، كالقتل ، أو السجن لمدد تختلف باختلاف الجرم ، أو الجلد بعصى الخيزران على أخمص الأقدام ، وغيرها من الجرائم ، حسب ما تقتضيه كل حالة . كما أن الدراسات الصينية الحديثة تثبت وجود هاتيك القوانين التشريعية ، التى تنسب إلى « جنكيز خان »[1] .

مما أورده « ريازانوفسكى » ، معتمداً على ما جاء فى المصادر الصينية ، يفهم ضمنياً بأن الصينيين هم الذين صنفوا « الياسا » حسب طلب « جنكيز خان » ، وبذلك جاء التأثير الصينى شديد الوضوح على القوانين المذكورة . تورد احدى الروايات المغولية ، فى هذا الخصوص ، بأنه عندما أصبح « جنكيز خان » يحكم مملكة مترامية الأطراف ، عظيمة الاتساع شملت أغلب أراضى الصين ، والتبت ، وجميع أراضى المغول ، رأى بأن قوانين الصينيين وتنظيماتهم تتميز بالقوة ، والدقة ، وأنها لا تتغير ، رغم تغير الزمان ، والمكان . لذلك نجده يدعو واحداً من معلمى الثقافات الصينية العظام ، ومعه ثمانية عشر من تلاميذه النابهين (لم يذكر اسم ذلك المعلم ولا أحداً من تلامذته الثمانية عشر) من بلاد الصين ، وطلب منهم بان يدونوا قوانين « يُسُّون ــ Yosson » بحيث تسهم فى تأمين السلام لمواطنيه ، وتجعل السعادة ، والرفاهية

(١) Ibid. 28 - 29.

ترفرف على شعبه ، وأن تضمن تلك القوانين « خولى ــ يسنو بيتشيك Khuli-Yessonu-Bichik » على وجه الخصوص ، أموراً تكفل حماية حكمه . عندما صنفت تلك القوانين ، وعرضت على « جنكيز خان » أقرها ، بعد أن وجدها تتفق مع أفكاره ، وما يدور بخاطره ، لذلك ، فقد امتدح مصنفيها ، وكافأهم ، واسبغ عليهم القاباً . ورفع مراتبهم[1] . كما أن هناك رواية أخرى ، تذكر بأنه فى السنة السادسة من حكم « تئاى ــ تزو/يعنى جينكيزخان » كان المغول فى حالة حرب مع الشعب الصينى ، فهزموهم وأبادوا قواتهم نهائياً[2] . وهنا أشار قائد الجيوش الصينية (اسمه كَو ــ باو يوى Go-Bao-Yui » بعد أن إستسلم لجنكيز خان) عليه بان يشرع قانوناً ولوائح جديدة حول تنظيم الدولة الحديثة . فاقتنع « تئاى ــ تزو/جنكيز خان » . ولذلك شرع قوانين تتعلق بعقوبات القتل ، وأخرى بعقوبة الجلد ، حسب طبيعة الجريمة المرتكبة ، أو المخالفة الاجتماعية . بناءُ على ذلك ، فقد أضحى هذا القانون بداية التشريع لهذه الأسرة المغولية الحاكمة[3] .

أما ماجاء فى مصادرنا الإسلامية « عربية وفارسية » فيما يتعلق بـ « ياسا جنكيز خان » فقد كانت أكثر دقة ، وسعة ، مما أوردته المصادر الأخرى . وقد قال بهذا ، كما سبق ذكر ذلك ، « ريازانوفسكى » بان المسلمين (وهو يعنى العرب والفرس) هم أصحاب المعلومات الدقيقة حول « الياسا » . وهذا أمر متيسر لنا ، بحمد الله ، اضافة إلى هذه الحقيقة فانه من المعلوم جيداً بأن السفراء والرحالة الأوربيين ، ممن زار بلاط المغول وشاهدوهم ، وعاشوا معهم فترة من الزمن ، هم أيضا قد دونوا معلومات غاية فى الدقة ، وهى معلومات أناس قد أطلعوا اطلاعاً مباشراً على الكثير ، بل أغلب ما دونه من معلومات فيما نحن بصدده .

(١) Riasanovsky, "Fundamental.." P.: 26.

(٢) فيما يتعلق بالغزو المغولى للصين أنظر : « سقوط الدولة العباسية » ٧٨ ، ٣٥١ .

(٣) Riasanovsky, "Fundamental.." 29 & F.N. 15.

من المعلوم جيداً أن مؤرخنا علاء الدين عطا ملك الجوينى ، حسب معرفتى القليلة ، يتصدر المصنفين المسلمين ، من خلال مصنفه الكبير « جهانكشاى »[1] . بدأ كلامه عن « قوانين جنكيز خان » تحت عنوان : « ذكر القواعد التى وضعها جنكيز خان والياسا التى أصدرها بعد تقلده السلطة » ، وبعد مقدمة ذكر فيها مقارنة بين « جنكيز خان » مع غيره من ملوك العالم ، بما فيهم فراعنة مصر ، وقياصرة الروم ، وأكاسرة الفرس ، وغيرهم ، ثم قدم كلامه عن « قواعده ، والياسا » التى وضعها ذلك الخان حيث ذكر بأنه « ... ، وضع قاعدة لكل مناسبة ، وتنظيماً لكل ظرف ، بينما ثبت فى الوقت نفسه لكل جريمة عقاباً .. كما أمر بأن تدون هذه الياسا والقوانين فى سجلات ، وتسمى هذه السجلات كتاب الياسا الكبير ، وأن تحفظ فى خزائن الامراء الكبار »[2] . كما استطرد الجوينى ، فى كلامه عن هذه القواعد ، قائلاً ، بأن هذه السجلات القانونية تستحضر للمراجعة ، حيث يتم العمل بموجبها وطبقاً لما ورد فيها ، كلما أعتلى خان جديد على العرش المغولى ، أو كلما اجتمع حشد هائل من الجند لتجييشهم ، فى حملة عسكرية يزمع القيام بها ، أو كلما اجتمع الأمراء فيما بينهم للتشاور فيما يتعلق بشؤون الدولة وادارتها[3] . أما مدى تطابق هذه القوانين مع الشريعة الاسلامية ، فيقول : « ... ، يوجد هناك العديد من هذه النظم مطابقة مع الشريعة .. ، وبعضها مخالف لها ... »[4] . ثم أخذ يشرح جزءً من هاتيك القواعد كنظام الصيد ، وتنظيم الجيش ، وحرية التجارة ، وسرعة حركتها ، وتسهيل طرقها ، وبعض مسائل الميراث[5] .

(١) الجوينى ، علاء الدين عطا ملك : « تاريخ جهانكشاى » تحقيق الأستاذ : ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ هـ/١٩١١ م ، ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٧ م ، ١٦/١ ، ٢٥ ، ترجم إلى الانجليزية على يدى الأستاذ الدكتور/ج . أ . بويل ، تحت عنوان : « تاريخ فاتح العالم» ، مطبعة جامعة مانشستر ، ١٩٥٨ م ، ٤٣/١ ــ ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١٦/١ ــ ١٨ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٣/١ ــ ٣٥ .

(٣) نفس المصدر ، ١٧/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٥/١ .

(٤) نفس المصدر ، ١٨/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٥/١ .

(٥) نفس المصدر ، ١٩/١ ــ ٣٥ ، الترجمة الانجليزية ٣٦/١ ــ ٣٤ .

أما ما أورده رشيد الدين فلا يخرج عن كونه أمثالاً شائعة ، ونصائح عامة ، وأموراً تتعلق بتجاربه الشخصية[1] .

خلف هذين المؤرخين المسلمين مصنفون آخرون ، جاءوا من بعدهما ، فنقلوا عنهما ، فوضع كل واحد هذه القاعدة أو ذاك القول بطريقته الخاصة ، ودونت أغلبها تحت اسم « ياسا جنكيز خان » أو « عادات القبائل المغولية وياسا جنكيز خان »[2] .

من المصنفين الآخرين المعاصرين ، من غير المسلمين ، العلامة ابن العبرى ، وهو المعروف أيضا بـ « بارهبروس كَريكَوريوس الملطى ، حيث ضمن كتابه ، الذى ألفه باللغة السريانية فى التاريخ العام ، بعضاً من هاتيك القواعد والأنظمة ، التى تنسب إلى « جنكيز خان » تحت عنوان « ياسا جنكيز خان » . وقد أورد هذا المصنف تسعاً منها ، تتعلق بالناحية العسكرية ، والارث ، والنظرة المغولية إلى الأديان ، والعلاقة بين الحاكم والمحكومين[3] .

إضافة إلى ابن العبرى ، فهناك مؤرخان ارمنيان آخران ، صنفا بالسريانية هما « فارتانك ومهاكيا ــ Vartang and Mahakia » ، حيث ذكرا بأن « جنكيز خان » أصدر قوانين تشريعية[4] .

أما مصنف كتاب « تاريخ نفكَرد » ، فقد أورد فى مؤلفه أمراً ، وهو ما يتعلق بعلاقة المغول بالنار والأوثان ، وأدعى بأنهم يجبرون الناس على السجود للشمس ، كما يرغمون كل واحد يقابل خانهم على المرور بين نارين ، ويشير

(١) رشيد الدين ، فضل الله « جامع التواريخ » ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش ، ٤٣٣/١ ــ ٤٣٤ .

(٢) العمرى ، ابن فضل الله شهاب الدين ، مسالك الأبصار ، مخطوط باصوفيا السليمانية ٣٤٣٩ ، حـ ١٧٤/١ . المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، دار صادر ، بيروت ، حـ ٣٣٠/٣ ــ ٣٣١ . مجهول المؤلف ، « شجرة الأتراك » الترجمة الانجليزية ٩٠ ــ ٩٦ .

(٣) Bar Hebraeus, "The Chronography" translated from the Syriac by : E. A. Wallis, Oxford University Press, London, 1932, 354-355.

(٤) عن هذين المؤرخين أنظر : Riasanovsky, "Fundamental..." P : 28.

هذا المصنف ، حسب ما يفهم من روايته على أن هذا الأمر يتعلق بالمسائل الدينية[1] . وسنجد أن ما أورده هذا المصنف ليس كذلك ، وهذا ما سيرد معنا أثناء نقاش ما نحن بصدده ، « ياسا جنكيز خان » .

هذه لمحة خاطفة ، وجولة سريعة مختصرة ، عن أهم المصنفات ، التى تطرق أصحابها ، معاصرون وحديثون ، لما نحن بصدده لـ « ياسا جنكيز خان » لمن أراد أن يرجع إليها للاستزادة فى هذا الموضوع ، أو البحث فيه . أما ما يتعلق بفقرات « الياسا » . فاننى سأقوم بايراد الفقرات والبنود المنسوبة إليها ، من خلال مصادر مادتنا التاريخية ومراجعتها . إلا أن « فرناوسكى » قد خلط فى هذا الموضوع بعض الشىء ، كما يبدو لنا ، إذ دمج جزءً من أقاويل وحكم « جنكيز خان » المأثورة عنه ، والواردة عند رشيد الدين ، فى مصنفه « جامع التواريخ » ضمن « الياسا » . وهذا ما سيتضح معنا أثناء دراستنا . ومع ذلك ، فقد وجدت أن الطريقة التى إتبعها « فرناوسكى » طريقة جيدة ، حيث قسمها إلى مجموعات ، كل فئة حسب اختصاصات بنودها ، وفقراتها حسب قانون عصرنا الحاضر ، ومفهومه . لذلك رأيت أن أقسمها أيضاً إلى فئاتها المختلفة ، تقسيماً ليس بعيداً عما ذهب إليه « الأستاذ فرناوسكى » ، حسب رؤيتى المتواضعة لها ، اضافة إلى أننى قد أختلف عنه ، كثيراً ، وذلك بمناقشة كل فقرة ، حسب الحاجة ، وعما إذا كانت من صميم عادات المغول وتقاليدهم السابقة ، التى تعارف عليها القوم ، قبل ظهور « جنكيز خان » ، التى تنسب إليه « الياسا » على أنها من تأليفه ، ومبتكرات عقليته .

« الياسا وسلطة الخان المطلقة » :

ما أن انتصف العقد الأول ، من القرن السابع الهجرى/١٣ للميلاد ، حتى أصبح « تيموجين » يتربع على رأس الهرم بين مختلف العشائر المغولية وكافة قبائلهم . توحدت ، لتكون قوة واحدة ، بفضل مجهودات هذا الرجل ،

(١) C.R. Beazley, "The Chronicle of Novgorod" translated from Russian by : R. Michell and N. Fobers, London, Camden Society, Vol, 25, 1914, P. 81.

وأعماله الجبارة . لهذا نجده ، بعد توحيد قبائلها المتنافرة ، يدعو إلى اجتماع عام ، وهو ما عرف فى الأوساط التاريخية المغولية ودراساتها بـ « القوريلتاى »، ليحضره جميع الأمراء ، وكافة القادة العسكريين ، وكل أفراد العلية من القوم ، ورؤساء العشائر والأحلاف القبائلية ، وذلك للتشاور فيما بينهم فى أمور شؤونهم أجمعين ، وبما يخدم الصالح العام للأمة المغولية . كان ذلك الرجل يريد أن ينتهى ذاك الاجتماع بقرارات تدعم سلطانه ، ولا تحد من نفوذه على مر الزمن ، وتعاقب السنين . وقد نجح ، فيما كان يهدف إلى تحقيقه من ذلك الاجتماع ، نجاحاً ربما لم يكن يتوقعه هو شخصياً ، فقد خرج منه بعد أن نُصِّبَ حاكماً مطلقاً ، ليس على المغول ومن يمثلهم فى اجتماعهم ذاك فحسب ، بل أضحى هو الشخص الوحيد الذى اعترف له بالحكم على العالم بأسره ، والخروج بلقب يناسب هذا النفوذ العالمى ، والسلطان الشامل ، على كافة أرجاء الأرض ، طبقاً لما أوصى به « تنكرى » ، حسب زعمهم ، إلى ذلك الكاهن المغولى[1] .

لهذا السبب ، خرجوا من ذلك الاجتماع العمومى بان أعطوا « تيموجين خان » اللقب الذى أصبح معروفاً به فى الأوساط العلمية وهو « جنكيز خان » أى الخان العالمى ، كما سبق ذكر ذلك فى بحث سابق لنا[2] . أن هذا هو ما كان يسعى إليه « جنكيز خان » من دعوته إلى ذلك الاجتماع العمومى ، ليحصل على موافقة الجميع على البيعة له ، إن جاز لنا استخدام هذا التعبير ، والتمكين له ، ولبنيه من بعده ، بالسلطة المطلقة دون منازع ، وذلك بتشريع قرارات معينة ، تخدم الخان المتربع على العرش ، وتكفل وحدة الدولة ، التى يحتل قمة هرمها ، وعدم انحلالها . لعل مما أصدره فى ذلك الاجتماع ، حول هذا الموضوع ما يلى :

(١) كلمة « تنكرى » تركية ، تعنى لفظ الجلالة « الله » . أنظر الياسا الدينية تحت .

(٢) « سقوط الدولة العباسية » ٧٦ .

أولا : حصر اللقب للخان وحده :

بناءً على ما يحمله لقبه « جنكيز » من سلطات ليس لها حدود ، فقد أراد ، على ما يظهر لنا ، أن يورد نصاً فى تشريعاته وقوانينه « الياسا » يحرم على الناس التلقب بأى لقب ، مهما كان ، وأن لا يحمل المرء مع اسمه أى لقب ، بل يكون اسمه مجرداً ، وأن يقتصر فى حمل اللقب على الرجل الذى يعتلى عرش الامبراطورية ، وأن لا يحمل هو أيضاً سوى لقب واحد فقط ، وجعل ذلك أمراً قانونياً ، بناءً على ما يمكننا استنتاجه مما جاء عند الجوينى فى هذا الشأن ، فحواه على النحو التالى :

ـــ يلقب المرء الذى يتوج على العرش الخانى بلقب واحد فقط ، يضاف إلى اسمه الأول ، وهذا اللقب هو « الخان » أو « القاآن » ، فلا شىء غير هذا يضاف إلى اسمه فى اية كتابة رسمية وغير رسمية ، أو عند التخاطب معه . أما البقية من ابناء الخان الآخرين وأخوانه فيجب الا يسموا ، سواء فى حضورهم أو فى غيابهم ، بغير الأسماء التى مُنِحَها كلُ فرد حين ولادته . وهذا ينطبق أيضاً على بقية القادة والنبلاء ، وعليه القوم ، فى المجتمع المغولى ، فلا يكتبون سوى الاسم مجرداً من كل الألقاب الزائفة ، والرنانة ، فلا فرق بين سلطان ورجل عادى ، فكل واحد يسمى ويدعى باسمه[1] . وقد ورد عند المصنف الأرمنى « بارهبروس » فى هذا المعنى ما نصه : « يجب الا يغدق المغول على ملوكهم وعليه القوم منهم القاباً رنانة كالامم الأخرى ، وخاصة المسلمين ، فلا يحق للانسان الذى يعتلى العرش المغولى أن يضيف إلى اسمه سوى لقب واحد فقط هو : الخان أو القاآن . ويجب على أخوته وأقربائه بالا يدعوه سوى باسمه الذى منح له عند ولادته مجرداً من اللقب »[2] .

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ١٩/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٦/١ ـــ ٣٧

(٢) بارهبروس ، أو ابن العبرى ، « كرونوكرافى » الترجمة الانجليزية ، ص ٣٥٤

أشاد الجوينى بهذا القرار الوارد فى « ياسا جنكيز خان » ، وقال بأنه من العادات والتقاليد الحميدة ، التى تستحق المدح والاطراء عند جنكيز خان ، والمغول من بعده ، هو فعله ذاك الذى قفل فيه باب التلقب بالألقاب الطنانة مع أنها أمور جوفاء ، لا تسمن ولا تغنى من جوع[1] .

لعله قد فات على الجوينى ، وغيره ممن نهج هذا الرأى ـــ كما يبدو لى ، أن لقب « قاآن » لم يكن من الأمور المعروفة وقت « جنكيز خان » ، لأن هذا اللقب يعنى « خان الخانات » ، ومن المعروف أن هذا اللقب لم يأت إلا بعد وفاته ، حيث تلقب به ابنه وخليفته « اكَتاى » ، لكى يفرق بينه وبين الأمراء الآخرين من أسرته الذين تلقب كل واحد منهم بلقب « خان » ، بحكم مركزه الأميرى كخان على ما تحت يده من مملكة واسعة ، ينوب بشكل نظرى عن الخان الكبير ، أو « القاآن » . لذلك فإنه يظهر أن هذا تناقض جاء عند مصنفنا الكبير ، الجوينى ، وغيره فى هذا الشأن ، خاصة لقب « خان » الذى أصبح يحمله كل أمير ينتسب إلى « جنكيز خان » . لذلك فانه يبدو لى ، إذا كان فعلاً قد ورد شىء من هذا فى « الياسا » ، فقد خالفها كل الأمراء المنتسبين إلى « جنكيز خان » ، الذى ربما كان هدفه من وضع هذا القرار أن يحفظ للشخص ، الجالس على العرش المغولى ، احترامه وتقديره المتمثلين فى لقبه الامبراطورى ، ولئلا يكون المجال مفتوحاً أمام الآخرين ممن يصبح لهم مكانة اجتماعية مرموقة ، فيترك الحبل على الغارب ، فيتلقب أى فرد بما يشاء من الألقاب ، قد يكون فى ذلك مساساً بلقب الخان نفسه[2] .

ثانيا : الجمعية العمومية الشعبية :

أن الغرض الأساسى من دعوة الناس إلى هذا الاجتماع ، ما هو إلا قرار آخر ، يهدف إلى ما كان يهدف إليه سابقه ، المتعلق باللقب ، واقتصاره على

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ١٩/١ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٦/١ ـــ ٣٧ ، أنظر كذلك « شجرة الأتراك » لمجهول المؤلف ، الترجمة الانجليزية قام بها الكولونيل ميلز ، لندن ١٨٣٨ م ، ص ٩٣ .
Unknown, "Shajarat ul Atrak", ED, & Tran., by cd Miles, London, 1838, P. 93.

(٢) أنظر ما قاله فى هذا الخصوص G. Vernadsky, "The Scope.. ", 346.

الخان نفسه ، حيث يخدم سلطات الحاكم الأول فى الدولة ، ويجعلها وحدة واحدة لا تتجزأ ، إذ كان « جنكيز خان » كان يخشى أن تتفكك امبراطوريته إلى دول كثيرة ، فتنتهى سلطة المغول . لذلك ، وعلى ما يبدو لنا ، أصدر قراراً ينص على وجوب ذلك التجمع ، وأن يحضره الصغير والكبير من ذوى المسؤولية فى دولة المغول ، وعقاب من يتخلف الموت ، إلا بعذر مقبول وقاهر ، كما سنرى .

لم تذكر مصادر مادتنا ، التى أمكننا الرجوع إليها ، بصريح العبارة على أن « القوريلتاى » ، وهو الاجتماع العام للمغول ، كان فقرة واحدة من فقرات « ياسا جنكيز خان » أو فقراتها . إلا أن « جون الكربينى » أورد رواية تدل على أن هذا الاجتماع قد وردت له فعلاً اشارة على أنه من قرارات « الياسا » أو فقراتها . يقول هذا المصنف بأن « جنكيز خان » عمل عدة قوانين و« ... ، سنعطى اثنين منها فقط . واحد ينص على أنه إذا ما تجرأ انسان ، مدفوع بكبريائه المتبجح ، وأراد أن يكون امبراطورا بدافع من رأيه الشخصى وسلطته الوحيدة وصلاحياته الفردية ، وبدون انتخاب يتم على أيدى الأمراء الباقين ، فانه يتحتم قتله ، وبدون رحمة به ، أو شفقة عليه ... »[1] .

بناءً على ذلك ، فإنه يمكننا القول بأن هذا الاجتماع أصبح أمراً تقليدياً ، ورد له نص فى « ياسا جنكيز خان » ، حيث يلتقى فيه كافة الأمراء من أسرة « جنكيز خان » ، يأتون إليه من كافة أرجاء الامبراطورية ومختلف أقاليمها ، كل كبير أسرة ، من أسر هذا الخان ، على رأس وفد بنى أبيه ، وبذلك أضحى أمراً مسلما به ، أنه من يتخلف عن أى اجتماع من هذا النوع ، يدعو إليه الخان ، أو من ينوب عنه ، أو اتفق عليه ودعى إليه من قبل كبار أسرة ذلك الخان « جنكيز » فان عقوبة المتخلفين عن حضوره هى الموت قتلاً . اضافة إلى أن حضوره مفروض أيضاً على جميع القادة العسكريين ، ورؤساء العشائر ،

(١) Carpini, John, "History of the Mongols" Ed. By : C. Dawson, London & New York, 1955. P.: 28.

وكافة أمراء وولاة أقاليم الإمبراطورية ، وموظفيها ، ومن لم يحضر منهم فان عقابه هو الآخر « الموت بعد التعذيب حياً » . والسبب وراء ذلك ، هو أن تغيبه يؤخذ على أنه مخالفة مكشوفة لسلطان المغول ، ويعتبر تصرفاً يبطن العصيان ، وعدم الرضا والانسجام قلباً وقالباً مع السلطة المركزية فى مقرها ، فمن تخلف يقدم للمحاكمة العلنية ، تمهيداً لاعدامه . إذ لا يتم قتله إلا بعد محاكمته ، والتى يتم خلالها انزال ويلات العذاب الجسدى ، والتشويه الخلقى بالمتهم ، فالغاية من محاكمة المخالف هى التشهير به ، وجعله عبرة لغيره ، مع أن النتيجة معروفة فى النهاية ، وهى الاعدام .

لهذا ، فانه كان يتحتم على كل من يعنيه الأمر ، بحضور ذلك الاجتماع ، بأن يسارع إلى الحضور ، مهما بعدت الشقة ، أو صعبت المسالك ، أو سدت الطرقات بعوائق ، كنزول الثلج والامطار ، بل على كل امرء أن يكابد السفر ويصارع الأخطار ، ويركب الأهوال ، فى شكل متواصل السير ، ليله بنهاره ، حتى يصل إلى مكان الاجتماع . فإذا أقتنع بعذره ، وعلم اخلاصه وولاءه ، فانه يكرم ، ويثبت فى مركزه الادارى ، لأنه بذل غاية جهده لكى يحضر ذلك الاجتماع المدعى له والمتوجب حضوره .

إذاً ، يظهر لى بأنه يمكننى وضع صيغة لهذا القرار الخانى ، الذى تذكر بعض مصادرنا بأنه ورد فى « ياسا جنكيز خان » ، على النحو التالى : « يجب على جميع الأمراء فى الدولة ، ورجالها من ذوى السلطة ، وكبار القادة فى الجيش ، والاداريين أن يجتمعوا فى صعيد واحد ، وفى وقت معين لكى يختاروا من بين الأمراء من يرونه أهلاً لتتويجه خاناً على الامبراطورية . ومن يسعى لانتخاب نفسه ، استقلالاً بسلطانه ، وغروراً بمكانته ، وبدون انتخاب ورضى من بقية الأمراء ، فانه يقتل ، لأنه يريد أن يتولى الحكم بدون اختيار وموافقة المعنيين بالأمر . ومن تخلف ، ممن يتطلب حضوره ، فانه يقتل »[1] .

(١) لمعلومات تفصيلية ، ووصف حى لمثل هذا الاجتماع ، وكيف يتم اجتماع القوم واستقبال بعضهم بعضا ، انظر : الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٤١/١ وبعدها ، ١٣/٣ وبعدها ، الترجمة الانجليزية ١٧٨/١ وبعدها ، ١٩٦ وبعدها ، ٣٤٨ ، ٥٥٥/٣ وبعدها . حيث تم فى هذه الاجتماعات انتخاب وتتويج « اكتاى وكويوك ومنكو » على التوالى .

بناءً على هذا ، فالذى يظهر لنا ، هو أن « القوريلتاى » يعتبر السلطة العليا فى الامبراطورية المغولية ، وهى فى حد ذاتها دعم لسلطات الخان المغولى ، وتأكيد لنفوذه ، بشكل مفروض على القوم ، وبرضى واختيار منهم ، حيث أن الخان يستمد نفوذه المطلق وسلطانه الواسع على الشعوب التى خضعت تحت نفوذهم ، بل أن الخان المغولى كان يعتقد ، اعتقاداً راسخاً ، بأنه يجب أن يكون السلطان الأوحد على أمم الأرض بأسرها ، متى أعطى الموافقة ، من قبل الأعضاء المجتمعين فى ذلك المجلس العمومى ، ونصبوه « خاناً » ، أو « قاآنا » عليهم . وبما أن ذلك الاجتماع ، الذى انتخب فيه « تيموجين خان » « جنكيز خان » قد أعطاه الحكم المطلق ، إذ أصبح من الأمور المسلم بها ، ومن أوجب الواجبات ، إلا يتم اختيار أى فرد وتنصيبه على العرش المغولى ، إلا من خلال اجتماع عام مثل ذاك الذى عقده « تيموجين خان » ونصب فيه على عرشهم . فأمسى عقد مثل هذا الاجتماع أمراً قانونياً ، حيث قد نص عليه كفقرة فى « الياسا » على ما ظهر لنا ، على الأقل فى النصوص التى تسنى لنا الرجوع إليها . كذلك يعقد فى موطن المغول الأصلى ، بلد الاباء والأجداد ، وهى تلك التى ورثها « تولى خان بن جنكيز خان » وابناؤه من بعده ، كما أسلفنا القول فى بحث سابق[1] .

لعل من أهداف حتمية عقد هذا الاجتماع فى مكانه وزمانه المحددين فى « الياسا » أمور كثيرة ، قد يكون منها :

ا — أن عقده فى مكان معين ، وهو أرض المغول الأصلية ، وبحضور كافة الأمراء ، كل كبير أسرة على رأس قوم أبيه ، ومن تحت نفوذه ، يمنع أى أمير آخر أن تسول له نفسه بالاستقلال عن الدولة المركزية ، مهما كانت قوته ، أو سعة أرضه وأملاكه ، أو أن يقوم بتنصيب نفسه خاناً أكبر على المغول ، فينافس غيره من ذوى الحق فى تولى السلطة .

(١) « سقوط الدولة العباسية » ، ١٤١ وبعدها .

ب — أن تكون الدولة وحدة واحدة ، عليها رجل واحد ، وهو « الخان » فى « قرا — قروم » ، فلا يكون هناك أى مجال لتفككها ، وما قد يتمخض عنه ذلك من بداية لانهيار الامبراطورية وتحللها ، لاعتقادهم الراسخ ، بأنها عالمية النفوذ ، ولتكن أبدية الوجود ، لا تزول ولا تنقضى .

حـ — تأكيد سلطة « الخان » أو « القاآن » المطلقة على كافة الأسر ، وعلى جميع الولاة ، والقادة العسكريين ، فهم يأتون لاعطائه البيعة ، ثم يتلقون منه الأوامر والنواهى ، تجاه ما يقوم به من أعمال ، كل فيما يخصه .

د — تأكيد الالتزام بما جاء فى « الياسا » ، وذلك باستخراجها من حرزها ، التى هى محفوظة فيه ، واعادة قراءة ما ورد فيها من بنود ، واعلانه للناس ، كل ذلك لكى ، على حد تعبير الجوينى ، « ... ، يكيفون أعمالهم وينفذونها طبقاً لما جاء فيها »[1] .

أما مسألة ما ذهب إليه « فرنادسكى » من أنه من أغراض ذلك الاجتماع هو تأكيد سلطة القبيلة التى ينتمى إليها الخان نفسه ، خاصة ، وكافة القبائل المغولية فى مجموعها ، بل لتأكيد سلطة العنصر التركى على غيره من العناصر العرقية الأخرى ، وخاصة بعد أن ضمت الدولة المغولية تحت مظلة نفوذها أجناساً وأمماً ذات أعراق جنسية غير العنصر التركى ، فان هذا القول يبدو لى غير دقيق[2]

لعل السبب ، وكما يظهر لى ، هو أن المغول ، بدءً من « جنكيز خان » وحتى الانسان العادى ، يرى نفسه فوق جميع الطبقات البشرية ، وأن المغول لم يخلقوا إلا ليحكموا العالم ، بزعامة خانهم ، وأنهم صفوة مجتمعاتهم التى

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٧/١ — ١٨ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٥/١ .

(٢) G. Vernadsky, "The Scope..," 347.

تسكن المعمورة ، بل فوق ذلك كله ، أن للمغول الحق فى تجريد غيرهم من الناس من جميع ممتلكاتهم ، فليس لهم فيه حق ، بل أنه حق للمغول وحدهم ، وليس لغيرهم حق الاعتراض على أى مغولى يريد أن يسلبه ما عنده ، إذ يرون أن ذلك الانسان لم يكن من حقه أن يمتلكه أصلاً . لذلك فانه من هذا المنطلق كانت نظرة المغول ، إلى غيرهم ممن ينتمى إلى عرق خارج جنسهم العرقى ، ووطنهم الأصلى[1] .

« ياسا الامبراطورية الدولية » :

بما أن « جنكيز خان » قد أخبر بأن الها السماء والأرض (حسب زعمهم ، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) قد أتفقا فيما بينهما على أن يكون هو ومن يرث العرش المغولى ، من أبنائه وأحفاده ، الحاكم الأوحد على الأراضى . لذلك فلا بد أن يستمع إليه كل انسان على وجه البسيطة ، وأن يطيع أوامر الخان المغولى ، وأن يستسلم لهم طواعية ، وبدون أية مقاومة ، ومن لم يفعل ذلك فان مسألة القضاء عليه مسألة لا تحتمل أى تأويل ، فهو لا محالة هالك على أيديهم . والسبب وراء ذلك هو شدة اعتقادهم ، وعمق يقينهم بأن الاله الخالد فى السماء يؤيدهم . فى هذا الخصوص أورد مصنف كتاب « التاريخ السرى للمغول » ما نصه : « ... ، أن السماء والأرض قد اتفقتا فيما بينهما ، وقررتا أن تيموجين (وهو جنكيز خان) قد أختير ليكون الحاكم على الأرض ... »[2] . اضافة إلى ذلك ، فقد أورد « جون الكربينى » قولاً بأن المغول لديهم : « ... ، أوامر جنكيز خان بأن يخضعوا أمم الأرض لسلطانهم ... »[3] .

(١) لقد سبق لنا مناقشة ذلك فى الفصل الثالث من كتاب مخطوط تحت الطبع بعنوان « بيئة المغول وحياتهم الاجتماعية والدينية » أنظر كذلك : كتابنا : « أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى » . ٣١٨ ــ ٣٧١ وكذلك : Carpini, "The History...," Ed., Dawson, 15.

(٢) Unknown, "The Secret History of the Mongols", Eng, tr., by : A. Waley, London, 1963. P : 244.

(٣) J. Carpini, "History..." 38.

ولقد كان « بارهبروس » ، فى معرض كلامه عن « ياسا جنكيز خان »، يحمل نفس الاعتقاد ، ويؤمن عمق الايمان بأن الله قد أيدهم بنصره ، لذلك ، فقد فتحوا الأقطار وهزموا الأعداء ، وسيفتحون أقطاراً أخر ، وسيهزمون جيوشاً بعد جيوش[1] . كما أورد هذا المصنف فى كتابه العربى ما نصه : « ... ، وفى أثناء هذا الأمر ظهر بين المغول أمير معتبر كان يسيح فى الصحارى والجبال فى وسط الشتاء عرياناً حافياً ويغيب أياما ثم يأتى ويقول : « كلمنى الله (تعالى الله عما يقول) وقال لى أن الأرض بأسرها قد أعطيتها لتموجين وولده وسميته جنكيز خان ، فسماه جنكيز خان ثبت تنكرى وكان يرجع إلى قوله ولا يعدل عن رأيه ... »[2] .

ولقد سار على هذا المنوال أبناء وأحفاد « جنكيز خان » فى عقيدتهم الراسخة بأنهم مؤيدون ومنصورون من الاله الخالد خلف السماء الزرقاء . ولقد سبق أن ناقشنا هذا الموضوع فى بحث سابق حيث طرقنا الأسباب الحقيقية فى نظرنا ، وراء الغزو المغولى للعالم الاسلامى خاصة ، وبقية أراضى العالم التى وقعت تحت حوافر خيولهم[3] .

لذلك ، فلا غرابة أن نجد قاعدة معينة قد وردت فى « الياسا » توضح الاطار العام الذى يجب أن يسير المغول وخاناتهم على نهجه ، لاخضاع أمم الأرض . وكذلك أسلوب التعامل مع رؤسائهم كما يتضح هذا من الكيفية التى صيغت بها رسائل الخانات الموجهة إلى ملوك العالم وحكام الأقطار المختلفة ، ودعوتهم لاعلان الطاعة والاستسلام لهم ، وكذلك إلى كل من يتمرد على سلطانهم ، ويعلن الحرب عليهم ، لأن النتيجة ، وعاقبة أمرهم معروفة ، وهى ايمانهم بأنهم سيخضعونهم لسلطان المغول وجبروته . وأن أى انسان ، على وجه الأرض لم يخضع لنفوذهم ، يعتبر ، حسب اعتقادهم ، عاصياً لارادة الاله الخالد ، والأبدى الوجود . لهذا لابد من انزال العقاب الصارم بكل من يحيد عن طاعاتهم .

(١) "The Chronography", 355.

(٢) « تاريخ مختصر الدول » ، ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ .

(٣) « أوضاع الدول الاسلامية .. » ٣٦٤ ــ ٣٧١ .

من هذا المنطلق كان ينظر « جنكيز خان » ، وكل مغولى ، وبهذا التصور كانوا يسيرون فى تعاملهم مع غيرهم من الأمم الأخرى . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ « فرنادسكى » ، حيث قال (وهو عندى محق فيما ذهب إليه ، مستنداً على ماجاء عند الجوينى وابن العبرى المشار إليهما أعلاه ، لأن هذا منطق المغول) بأن أى انسان لم يستسلم للمغول ، أو خرج من تحت سلطانهم ، أو يحاول أن يثور على حكمهم ، يعتبر مخالفاً لما جاء فى « ياسا جنكيز خان » ومخالفاً لما جاء من عند الاله الخالد فى السماء ، حسب زعمهم ، وبما أوصى به إلى ذلك الكاهن المغولى . ورغم ما ذهب إليه هذا المستشرق ، إلا أنه يناقض نفسه بشكل لم يحس به[1] . اضافة إلى ما سبق فقد جاء « جون الكربينى » بالقول الفاصل ، حسب ما يبدو لى ، إذ يقول بأن « جنكيز خان » أصدر عدداً من القوانين والأسس المشرعة ، وهو هنا يقصد « الياسا » ، من هذه القوانين : « يجب عليهم (أى المغول) أن يخضعوا كل العالم تحت سلطانهم ، وألا يقبلوا التعايش فى سلام مع أية أمة ما لم يدن لهم شعبها أولاً بالولاء والطاعة ... »[2] . ومن ذلك يتضح لى بأن فقره من فقرات « الياسا » قد جاءت فى هذا الخصوص ، وتمشياً مع اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم فى حكم العالم ، بموجب ارادة الهية ، يمكننا وضعها بالصيغة التقريبية التالية :

١ ــ على الشعب المغولى أن يخضع كافة أمم الأرض وشعوبها تحت سلطته ، وإلا يقبل التعايش السلمى مع أية أمة ، ما لم تخضع هذه الأمة أو تلك بالولاء وتعلن الطاعة والخضوع للخان المغولى .

لذلك فقد جاء نص الاطار العام لتحديد أسلوب التخاطب مع الأعداء والمتمردين على سلطانهم ، وكيفية طلبهم الدخول فى طاعتهم ، يمكننا صياغته ، حسب ما جاء فى مصادرنا ، على النحو التالى :

٢ ــ عندما يريد الخان المغولى ارسال خطابات إلى أية جهة من الأرض يدعو

(١) Vernadsky, "The Scope..." 345.

(٢) J. Carpini, "The History..." 25.

الناس فيها للدخول فى طاعته ، فيجب ألا يستخدم الألفاظ النابية ، أو التهديدات العنيفة ، كما يفعله ملوك الطغيان فى العهود السالفة الذين يتهددون أعداءهم بقوة بطشتهم ، وبأحجام جيوشهم الهائلة ، وأسلحتهم ومعداتها الكبيرة ، وسعة أراضيهم المترامية ، بل على المغول أن يكونوا على عكس ذلك تماماً ، بحيث يكون أقصى تهديد يمكن تدوينه فى رسالة سياسية خارجية ما نصه : « ... ، فإذا أنت لم تستسلم ، أو تسلم نفسك ، فإننا لا نعلم ماذا يحدث لك من جراء ذلك ؟. ولكن الوحيد الذى يعلم ذلك كله هو الله القديم الأزل والأبدى الخلود »[1] .

أما مسألة حصانة الرسل ، والسفراء القادمين إلى المغول ، أو المراسلين منهم ، فانها مسألة لا تخرج عن الاطار العام ، عما سبق ذكره . ولا أعتقد أن مسألة مقتل سفراء المغول على يد السلطان محمد أو ملوك روسيا كان هو السبب لغزو « جنكيز خان » لأراضى الدولتين ، كما ذهب إلى ذلك القول الأستاذ « فرنادسكى »[2] . وقد سبق لنا أيضا مناقشة هذه المسألة فى بحثنا المنوه عنه أعلاه[3] .

إذا يمكننا أن نستنتج من ذلك كله أن المغول لم يكونوا يؤمنون بشىء اسمه « الدولة » لأن هذا يناقض ما جاء فى صميم معتقدهم الوجدانى ، وشعورهم تجاه أمم الأرض ، ودولها ، وشعوب الدنيا وحكوماتها ، فلا دولة عندهم على وجه الأرض إلا دولة المغول ، ولا حاكم عليها إلا « جنكيز خان » ، ومن يرثه من بنيه ، وأبناء بنيه من أهل بيته . لذلك فمسألة ان هذا قانون يمكن تدوينه تحت اسم القانون الدولى ، فيه نظر ، ولعل من قال بذلك ، نظر إليه من زاوية معينة ، وهى النظرة العصرية فى وقتنا الحاضر[4] .

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٨/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٥/١ ــ ٣٦ كذلك بارهبروس ، « ملوك العرب » الترجمة الانجليزية ، ٣٤٥ ؛ « شجرة الاتراك » ، ٩١ ــ ٩٣

(٢) Vernadsky "The Scope..." 345 - 346.

(٣) « أوضاع الدول الاسلامية » ٣٦٤ ــ ٣٧١ .

(٤) Vernadsky, "The Scop..." 344 - 345.

الياسا الجنائية :

وجد « جنكيز خان » أن الفوضى ، التى كانت ضاربة أطنابها فى مجتمعه ، الذى ظهر فيه وتربع على عرشه ، أكبر خطر يهدد دولته ، لذلك أراد أن يستفيد مما هو موجود من العادات والتقاليد المغولية ، ويدونها كتابة ، ويضيف إليها ما يناسب بيئته ومجتمعه ، بل وفوق ذلك كله امبراطوريته ، وخاصة ما يخدم الخان المتربع على العرش من أبنائه وأحفاده ، فمتى دونت هذه الأمور كتابة أصبحت أمراً مقدساً لدى المغول ، لأنهم حديثو عهد بالكتابة التى لم تدخل إلى مجتمعهم إلا أيام اعلان « الياسا » . لذلك نجد أن من يخرج عن قواعدها ، أو يحيد عن فقراتها ، أو يتهم بعدم الالتزام بها كدستور لحياته ، تنزل به عقوبة الموت ، لأنه ارتكب امراً مخالفاً لما جاء فى ذلك الدستور « الياسا » ، فأصبحت عندهم بمثابة الكتب السماوية المقدسة عند أهلها ، وقد طرق هذه الناحية (الصاق التهم بمخالفة الياسا بالأعداء للنيل منهم) ايالون ، كما سبق ذكر ذلك . لهذا نجد « جنكيز خان » قد ضمن ولاء مختلف القبائل المغولية لأسرته من خلال « الياسا » ، ومن خلال قواعدها استقرت الأوضاع الأمنية . بناءً على ذلك ، ساد السلام وعم النظام سائر أرجاء الدولة المترامية الأطراف ، وشمل كافة المجتمعات التى حوتها مظلة السلطة المغولية . إذ كان المرء يسافر اينا شاء ، وحيثما أراد ، ومتى رغب ، شرقاً أو غرباً ، شمالاً أو جنوباً ، قريباً أو بعيداً ، وهو مطمئن فى نفسه ، وماله وأهله ، لا يخشى أمراً .

فى الصفحات التالية سنتناول « الياسا الجنائية » ، وغيرها حسب ما عثرنا عليه منها ، معتمداً على مصادرها الأولية المعاصرة ، بشكل أساسى ، رغم أن مصنفى تلك المصادر لم يوردوا كل فقراتها ، على حد تعبير الجوينى ، وبعض مصنفينا من السفراء الأوربيين ممن كتب عن هذا الموضوع ، لئلا يطول بهم المقال ، وأن لدى المغول قوانين كثيرة جداً غير تلك التى أوردوها[1] .

---

(١) أنظر على سبيل المثال الجوينى « جهانكشاى » ، ١/٣٥ ، الترجمة الانجليزية ١/٣٤

ولكننا سنورد ماعثرنا عليه عند أولئك المؤلفين، حسب نصه إن كان ورد منصوصاً عليه ، ثم نورد نصوصاً للتى لُمِّحَ إليها عندهم ، **كاجتهاد شخص منا** ، وسنشير إلى ذلك حسب ورود كل فقرة ، أو اشارة معنا .

لذلك فسنعمد إلى اتباع الطريقة الحديثة ، فنقسم هاتيك القوانين إلى فئاتها المختلفة ، حسب اجتهادنا المتواضع فنجعلها أقساماً : جنائية ، ومدنية ، وتجارية ، وادارية ، وعسكرية ، واداب عامة اجتماعية .

قانون العقوبات الجنائية :

أورد لنا السفير الأوربى « ويليم الربركى » جملة من فقرات « الياسا » على ما يظهر لنا ، كانت سائدة بين المغول عند زيارته لهم ، أيام الامبراطور الرابع « منكَو » حفيد « جنكيز خان » ، حيث بدأها بقوله : « ان ما يتعلق بالقوانين الجزائية أستطيع أن أقول لكم أنه عندما يتقاتل رجلان فلا يستطيع أحد أن يتدخل لصالح أى من الطرفين ، حتى أن الأب لا يستطيع مساعدة ابنه .. الخ[1] .

مما جاء عند هذا المصنف ، لعلنا نعتقد ، أنها كانت قوانين مدونة ، من جملة ما أورده « جنكيز خان » فى « الياسا » . والذى يظهر لى هو أن هذه القوانين جاءت نتيجة لأمور كانت سائدة لم يكن ذلك الخان راضياً عنها ، فدونت كشىء الزامى ، وقانون يُحْتَرَمُ ، ليتحتم تنفيذ العقاب المناسب لمن يخالفه ، اضافة إلى أمور اجتماعية أخرى كان المجتمع المغولى قد تعارف عليها ، فجاءت ضمن « الياسا » . وسنشير إلى بعض الشواهد لكل فقرة ترد معنا ، فيما يتعلق بهذه القوانين الجزائية ، التى يمكننا صياغة كل بند منها كما يلى :

١ ـــ من يتدخل كطرف ثالث بين اثنين يتقاتلا ، ليساعد أحدهما على الآخر حتى الاب لا يحق له مساعدة ابنه ، ومن يفعل ذلك يقتل .

---

(١) Rubruck, Friar William, "The Journey of Rubruck to the Eastern Part of the World" * The Mongol Mission * Ed. C. Dawson, London & New York, 1955, P : 104.

٢ ــ يحق للرجل أن يتقدم إلى القضاء لمحاكمة خصمه ، فى الحال وبدون تأخير ، وعندما تثبت دعواه ، فانه يذهب ويجلب خصمه إلى المحكمة كالأسير بين يديه .

لعل السبب فى ايجاد هذين البندين هو ما كان قد جرى لـ « جوجى قسار » وهو أخو « جنكيز خان » على أيدى سبعة أبناء لشيخ كبير السن هو « منكَليك » من الاضطهاد والتنكيل . وقد تزعم الأخوة السبعة « كَلتشو » الذى كان بمثابة الكاهن « تب ــ تنكَرى » . فلم يستطع أحد أن يحد من نفوذهم ، وذلك لقوتهم ، الأمر الذى اضطر « جنكيز خان » أن يجمع قوة أرهبتهم ، فانتقم من ذلك الكاهن ، الذى أراد أن يكون فوق سلطة الخان ، كما سبق لنا مناقشة هذا الموضوع[1] .

٣ ــ لا تنفذ عقوبة جزائية على متهم ما لم يعترف بأنه ارتكب الجرم الذى اتهم به .

٤ ــ إذا أتهم مجموعة من الناس انساناً بتهمة ما ، فإن ذلك المرء المتهم يحاكم ويحقق معه ، ويعذب للتهمة بشهب النار حتى يعترف ، فتصدر العقوبة فى حقه حسب جرمه .

(وعند المغول وسائل تعذيبية أخرى كالضرب المبرح وغيره ، وقد عُذِّبَ شِيْبَانُ بنُ كويوك وأهلُ بيته ، عندما أتهموا بالتخطيط لقتل منكو قاآن ، بضربهم بشهب النار ، وأنواع التعذيب الأخرى ، حتى أعترفوا ، فنزلت بهم عقوبة الموت[2] .

٥ ــ من أقدم على قتل انسان فانه يقتل . (هذه الفقرة يبدو لنا أنها بين المغول أنفسهم ، لو رود نصوص تتعلق بالدية لغير المغولى كما هو موضح فى الفقرتين التاليتين) .

(١) فى كتاب لنا مخطوط تحت الطبع بعنوان « بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية » الفصل الرابع ــ فقرة ٣ .

(٢) W. Rubruck, "The Journey...", 147 - 8.

٦ ــ إذا قتل المسلم فان ديته أربعون باليشا[1] .

٧ ــ إذا قتل الصينى فان ديته حمار .

٨ ــ من ارتكب جريمة الزنا ، متزوجاً أم غير متزوج ، مع امرأة ليست له ، زوجة أو سرية ، فانه يحاكم تمهيداً لاعدامه .

٩ ــ من ارتكب جريمة اللواط فإنه يقتل .

١٠ ــ من يتعمد الكذب لاخفاء جرم يستحق القتل يقتل .

١١ ــ من يسرق سرقة كبيرة (ذات ثمن كبير) فانه يقتل .

١٢ ــ من يتخذ السرقة مهنة يقتل .

١٣ ــ من يسرق سرقة صغيرة ، كسرقة شاه ، يحاكم ، ويجلد مائة جلدة ، (حيث يضرب ضرباً مبرحاً بعصى غلاظ ، كما يضرب الحيوان) .

١٤ ــ من وجد عبداً آبقاً ، فأواه ولم يعده إلى سيده ، فانه يقتل .

١٥ ــ من يأتى إلى المغول ويدعى بأنه سفير ، ولم يكن كذلك فانه يقتل .

١٦ ــ كل من يسحر ، أو يمتهن السحر من الرجال أو النساء ، فانه يقتل . (وقد نفذ هذا الحكم فى حق ساحر وساحرة أثناء وجود « ويليم الربركى » فى بلاط الخان « منكَو » وقد وصف ذلك فيما دونه لنا وصفاً جيداً[2] .

١٧ ــ من يتجسس على غيره ، ليكشف شيئاً من حياته الخاصة ، أو سراً من أسراره ، أفراداً كانوا أم جماعة ، فانه يقتل .

إضافة إلى هذه القوانين ، التى جاءنا بها « ويليم الربركى » ، فقد جاءت اشارات إلى قوانين جزائية أخرى من هذا النوع ، عند ابن وطنه الرحالة

(١) الباليش عملة مغولية ذهبية ، وكل باليش واحد يعادل ٢٠٠٠ (ألفى) دينار ذهباً . والباليش الفضة يعادل مائتى (٢٠٠) دينار ذهبا . أى أن دية المسلم تصبح ثمانين ألف (٨٠٠٠٠) دينار ذهبا . أظن الجوينى مبالغاً فى هذا ، أنظر « جهانكشاى » ١٦٤/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٠٧/١ . أنظر كذلك « شجرة الأتراك » الترجمة الانجليزية ٩١ .

(٢) W. Rubruck, "The Journey..." 104 - 105, 199 - 200. See also De Bridia, "The Vinland Map and the Tartar Relation" Ed., by : R.A.Skelton, Yale Unv., Press, 1965. P : 94.

الايطالى « ماركو بولو » الذى ذهب إلى الصين ، وقابل الامبراطور « قبلاى بن تولى » وهو أخو الامبراطور « منكو » الذى قابله « ويليم » فى منغوليا . لعل هذه تكون اشارات مختصرة إلى ما كان سائداً لدى المغول فى الصين ، طبقوها على البلاد التى خضعت لسلطانهم حديثاً ، لأن القانون الذى يسود البلد المفتوح ، ولو لفترة قصيرة على الأقل ، هو قانون الغالب ، سواء أتفق مع قوانين البلد المغلوب أم لم يتفق . **ولعلنى اتجرأ ، فيما ظهر لى** ، واضع ما جاء عند « ماركو بولو » فى صيغة قوانين مكتوبة ، وكلنا نعلم مدى ما وصلت إليه الحضارة الصينية من تقدم فى هذه الناحية ، لتكون بالصيغة التالية :

١٨ ــ من اعتدى على انسان فجرحه ، فانه يعاقب بنفس الجرح ، « والجروح قصاص » حيث يقوم المُعْتَدَىٰ عليه بتنفيذ العقاب بنفسه على الجانى .

١٩ ــ إذا سرق امرء شيئاً صغيراً فى قيمته ، فانه يجلد بعصاة سبع جلدات على الأقل .

٢٠ ــ إذا سرق امرء شيئين صغيرين فى قيمتيهما ، فانه يجلد بعصاة سبع عشرة جلدة .

٢١ ــ إذا سرق انسان ثلاثة أشياء صغيرة فى أثمانها ، فانه يجلد بعصاة سبعا وعشرين جلدة . وهكذا كل شىء يضاف إليه عشر جلدات ، ٣٧ ــ ٤٧ ــ ٥٧ ــ ٦٧ ... الخ يضاعف الجلد بمضاعفة الأشياء ، عشراً عشراً ، عن كل عقوبة سابقة لها إلى أن يصل إلى ١٠٧ جلدات . (وقد يموت الانسان من الضرب)[1] .

٢٢ ــ إذا سرق انسان حيواناً يستحق بموجبه القتل ، فإنه يحكم عليه بالاعدام ، وينفذ فى حقه ، بحيث ينشر بمنشار إلى نصفين .

(١) Pola, Marco, "The Travels of Marco Polo", tr., into Eng., A. RicciEdinburgh, 1932, P : 176.

٢٣ ــ إذا سرق انسان حيوانات ، أو وجدت بحوزته ، واستحق القتل نتيجة لسرقته ، وكان فى مقدرته أن يشترى نفسه وينجو من القتل ، فعليه أن يدفع عن كل حيوان سرقه تسعة حيوانات من نوع ما سرق ، أو قيمتها ، لقاء كل حيوان ، مع اعادة ما سرق . وإذا لم يستطع ذلك ، فانه يؤخذ هو وأطفاله ويسلمون لصاحب الحيوان المسروق ، مع الدابة المسروقة . وإذا لم يكن لديه أطفال ، فانه يذبح كما تذبح الشاه[1] .

من المعلوم أن المغول لا يتلفون أى شىء فيه غذاء للجسم الإنسانى، مهما كانت نوعية ذلك الغذاء ، حتى العظام يقرضونها ، ويأكلون منها ما يستطيعون قرضه بأسنانهم ، أو بأنيابهم ، أو طحنه بأضراسهم . كما أنهم يقتاتون ، ان جاع المرء منهم أو عطش ، وخاصة أثناء السفر الطويل ، على دماء حيواناتهم عامة والخيول التى يركبونها خاصة ، وذلك بوخز الوريد ، الذى فى الرقبة بآلة حادة ، فيتلقى من نزيف الدم ما يكفيه ، ثم يدلك الوخز ليلتئم حتى يقف نزول الدم . وقد سبق لنا مناقشة هذه النقطة ، وذكرنا أن الدم مما يتغذى عليه الانسان المغولى[2] .

إذا ، فان مسألة ذبح الحيوان المراد أكله ، واهراق دمه ، يعتبر ، كما يبدو لى ، فيه حرج شديد ، إضافة إلى أنه تبذير واسراف ، حتى أن ذبح وجعل دمه فى غرارة ، فقد يتلف منه شىء ، وفوق ذلك أن المغول يعتقدون أن الروح تكمن فى الدم ، فان أهرق دمه وساح على الأرض وفيها ، ونشف تعتبر روحه غاست فى الأرض . لذلك ، فقد جاء نص فى « الياسا » يحرم ذبح الحيوان ، المراد أكله ، بهذه الطريقة ، بل ويحدد الكيفية التى يتم بمقتضاها قتل الحيوان بغرض أكله ، والتى يمكننا أن نضع لها صياغة ، على ضوء ما جاء فى مصادر مادتنا ومراجعها ، كما يلى :

(١) Ibid, P. 176;
أنظر كذلك ابن بطوطه « رحلة ابن بطوطه » بيروت ، ١٣١٤ هـ/١٩١٤ م ، ص ٣٢٤ .

(٢) تكلمنا فى ، الفصل الثانى ، فقرة (١) . من كتابنا الذى تحت الطبع « بيئة المغول .. » .

٢٤ ــ يجب أن تربط قوائم الحيوان ، المراد أكله، بشكل جيد ، ثم يشق بطنه فيدخل انسان يده إلى حيث يقع القلب ، فيمسكه ويعصره بقوة حتى ينفق ذلك الحيوان[١] .

لقد كان المسلمون ، ممن دخل مظلة الحكم المغولى ، من أشد الناس معاناة وتأثراً بهذا القرار الوارد فى « الياسا » ، إلى جانب قوانين غيره ، كالغسيل أو الاغتسال فى الماء الراكد أو الجارى ، كما سيرد معنا ذكر ذلك بعد قليل . ومن سوء حظهم أيضاً أن « جنكيز خان » أناط مهمة الاشراف على تطبيق فقرات « الياسا » وقوانينها ، ومراعاة ما جاء فيها ، والحفاظ عليها إلى ابنه الثانى « جفتاى » الذى قال عنه الجوينى بأنه لا يحيد عما جاء فى « الياسا » قيد انملة ، فقد كان أشد المغول غيرة لها وتحمساً عليها ، فلا يُبْقِي انساناً ، مهما كان ، متى خرج عنها ، ولو بمقدار شعرة[٢] .

ومن سوء حظهم أيضاً أن أغلب الأراضى الاسلامية ، التى خضعت للمغول ، أعطيت لهذا الرجل ، عندما قسم « جنكيز خان » مملكته بين أبنائه الأربعة الكبار ، كما سبق أن ذكرنا ذلك فى بحث سابق لنا[٣] . وفوق ذلك جميعه أن « جفتاى » أتصف بخلال غير حسنة ، وخاصة فى تعامله مع مواطنى ولايته المسلمين . وكان والده يعلم ذلك ، فأبعده عن العرش المغولى ، خاصة بعد أن ظهرت حماقته أثناء حصار المغول لمدينة « جرجانة » عاصمة الدولة الخوارزم شاهية[٤] .

لذلك فقد كان موقف « جفتاى » من المسلمين فى هذا الخصوص قد بلغ

(١) الجوينى « جهانكشاى » ، ١٦٣/١ ، ٢٣٧ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٠٦/١ ، ٣٧٣ .
(٢) الجوينى « جهانكشاى » ، ١٦٣/١ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٠٥/١ .
(٣) « سقوط الدولة العباسية » ، ١٤ وبعدها .
(٤) نفس المرجع السابق ، ١٣٨ ومابعدها . كذلك المصادر والمراجع الواردة فى حواشى تلك الصفحات .

الغاية من التشدد ، فعانى المسلمون منه أقصى المعاناة وأشدها ، حتى أن المسلم لا يذبح أية ذبيحة إلا خفية ، وقد أجبروا على أكل الميتة ، على حد تعبير الجوينى ، ولا يغتسلون إلا ليلاً ، وبصورة غاية فى السرية والتكتم[١] . كما أن هذا المصنف قد أورد الكثير من القصص المتعلقة بذلك ، فى أماكن كثيرة ومتفرقة من كتابه ، منذ بسط المغول حكمهم على مشرق العالم الاسلامى عامة ، وبعد تقسيم « جنكيز خان » لمملكته ، ومجىء ابنه « جفتاى خان » بوجه خاص . كذلك أورد العديد من الحكايات تروى مواقف أخيه « أكتاى » المعاكس ، حيث أتصف بالحكمة ورجاحة العقل ، وفوق ذلك بالحلم والتسامح الواسع فى تعامله مع المسلمين وخاصة فى هذه الناحية[٢] .

من عادات المغول وتقاليدهم الا يغتسلوا فى الماء الجارى ، والا يغسلوا ملابسهم ، أو ينشرونها فى العراء ، لأن ذلك له علاقة بأمور دينية واعتقادات معينة ، أدت إلى خوفهم من المطر ، والبرد والبرق والرعد ، إضافة إلى اعتقادهم بأن الماء الجارى شىء حى ، أى أنه من الكائنات الحية ، وأن له روح . لذلك فالعبث به قد يفسده .

جاء « جنكيز خان » فأكد على هذه الناحية ، ودونها على ما يبدو لنا ، فى « الياسا » ، وقد جاءت عند الجوينى ، فى ثنايا الكتاب ، كغيرها من القوانين ، التى جاءت عنده متناثرة فى مصنفه ، حيث لم يضعها ضمن القواعد والفقرات التى ذكر أغلبها تحت عنوان منفرد . وهنا أورد عدة قوانين فى فقرة واحدة ، وغايته فى ذلك الاختصار ، وعدم تدوينها جميعاً لئلا يطول به المقال ، كما ذكر هو ذلك .

لذلك ، فقد رأيت من الأنسب أن أعيد صياغتها ، **كاجتهاد شخصى ليس إلا** ، على شكل فقرات ضمن الاطار العام لما أوردناه من هذه القوانين . لعل

(١) الجوينى « جهانكشاى » ٣٣٧/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٧٣/١ .
(٢) نفس المصدر ، ١٦١/١ وبعدها ، الترجمة الانجليزية ٣٠٤/١ وبعدها .

هاتيك البنود تكون قد جاءت فى « الياسا » بصيغة تتضمن فى معناها العام ما يلى :

٢٥ ــ لا تغسل الملابس حتى تبلى ، « لأن فى غسلها اتلاف لها وتبدير ، كما يبدو ، اضافة إلى الاعتقاد الدينى ، كما ذكرنا ذلك أعلاه » .

٢٦ ــ من يغتسل فى الماء الجارى يقتل .

٢٧ ــ من يغسل يديه ، أو شيئاً من جسمه فى الماء الجارى يقتل ، (وعندما يرغب المرء غسل يديه ، أو الشراب ، فلابد أن يغترف من الماء باناء ، فيضع الماء فى فيه فيشربه أو ينثر الماء من فيه على يديه أن أراد غسلهما ، أو غسل أى جزء من بدنه) .

٢٨ ــ من يغترف ماءً من مجراه بآنية من ذهب أو فضة ، فانه يقتل .

٢٩ ــ من يغسل ملابسه فى الماء الجارى ، أو ينشرها فى العراء لتجف ، فانه يقتل .

٣٠ ــ من يتبول فى الماء الجارى فإنه يقتل .

أشار الجوينى بأن هذه القوانين منصوص عليها بألا ترتكب محظوراتها فى فصل الربيع والصيف . وقد علل ذلك بأن مواسم الأمطار تأتى فى بلادهم فى هذين الفصلين[1] .

لو رجعنا إلى المصنفات الأخرى المعاصرة ، والتى أعتمدنا عليها فى بحثنا هذا ، كمصنف « جون الكربينى ، ووليم الربركى » وغيرهما ، لما وجدنا الأمر هذا محرماً فقط فى فصل بعينه ، بل ربما كان عاماً ، وشاملاً فى كافة الفصول ، صحيح أن مواسم الأمطار هناك فى الربيع والصيف ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون التحريم بشكل دائم ، علماً بأن الجوينى علل ذلك لأسباب دينية

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ١٦١/١ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٠٤/١ ــ ٣٠٥ .
(٢) نفسه ونفس الصفحات . أنظر كذلك : W. Rubruck, "The Journey..." 103.

وعقائدية ، مصدرها الخوف من أن يؤدى ارتكاب ذلك المحذور إلى غضب اله المطر والرعد والبرق ، فتزداد هذه الأمور ، حتى أنه عندما يقصف الرعد ، فانهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، وخشية أن يخطف البرق أبصارهم . وأضاف بأنه عندما ترعد السماء وتبرق ، فأنهم يصبحون بُكْماً صامتين كالحيتان فى جوف الماء . وإذا ما أصيب انسان بصاعقة فانهم يطردون كافة قبيلته ومن يلوذ به بعيداً عنهم ، ولمدة ثلاث سنوات ، وفى خلال تلك المدة لا يسمح لأى واحد منهم أن يدخل مسكن الأمير . وإذا أصيب حيوان من بين قطيع ، فانهم يطردون بقية ذلك القطيع عنهم لعدة أشهر ، وبعيداً عنهم . أما وضعهم من ناحية التموين الغذائى فانهم لا يأكلون الطعام خلال المدة المتبقية من ذلك الشهر الذى وقعت فيه الحادثة ، وفى نهاية ذلك الشهر يعقدون احتفالاً كبيراً ، ابتهاجاً بنهاية أيام ذلك الشهر العصيبة ، التى مرت بهم[1] .

(١) نفس المصادر السابقة والصفحات .

« الياسا الدينية » :

سبق لنا أن ناقشنا موضوع الديانة فى المجتمع المغولى ، ووجدنا أن المغول يؤمنون بإله واحد ، أبدى ، سرمدى ، خالد ، خالق كل شىء ، ومبدع الكون ، وهو الرازق ، والمعطى ، والمانع ، كما ورد على لسان الامبراطور « منكو » يخاطب « ويليم الربركى » سفير الملك الفرنسى « لويس التاسع »[1] . ورغم ذلك فإن هذا الاعتقاد لم يمنعهم من عبادة آلهة أخر ، كالشمس ، والقمر ، وغيرهما من الظواهر الطبيعية وغير الطبيعية ، التى خلقها الله وقدرها . ولذلك فقد صنعوا التماثيل لآلهة أخر . وفوق هذا ايمانهم العميق بالخرافات والخزعبلات ، الأمر الذى نتج عنه أن أصبحوا شديدى التطير ، يؤمنون بالفال الحسن والنحس . ولقد رأينا سابقاً كيف كان كهنتهم ،رجالاً ونساءً على حد سواء ، يلعبون دوراً بارزاً فى حياة مجتمعهم بشكل عام[2] . لهذا السبب نجد أن « جنكيز خان » يتطرق إلى هذه الأمور فى « الياسا » ، حيث فرض احترام كل من يخدم ديانة ، ايا كانت ، وجعلهم أحراراً ، لا يكلفون بأى عمل من أعمال الخان ، أو الدولة ، وأعطاهم حق الدخول عليه وبدون استئذان ، وإذا أرتكب أحدهم ذنباً ، مهما كان ، لا يعاقب عليه ، كل هذا خلاف بقية أفراد طبقات المجتمع المغولى فى مجموعه . وقد جاء نص عند ابن العبرى ، فى هذا الشأن كما يلى :

« ولما علا شأن جنكيز خان أرسل إلى جميع شعوب الترك ، فمن أطاعه وتبعه سعد ومن خالفه خذل . وأنعم على « تب تنكرى » وذريته بأن جعلهم تركخانية وهو الحر الذى لا يكلف بشىء من الحقوق السلطانية ، ويكون ما يغنم من الغزوات له مطلقاً لا يؤخذ منه نصيب للملك ، وزاد لهؤلاء (يعنى رجال الدين) أن يدخلوا على الملوك بغير اذن ولا يعاقبوا على ذنب إلى تسعة ذنوب »[3] .

(١) W. Rubruck, "The Journey...." 195.

(٢) أنظر الفصل الرابع فى الفقرات ١ ، ٢ ، ٣ ، من كتابنا تحت الطبع « بيئة المغول الطبيعية . الخ » .

(٣) ابن العبرى « تاريخ مختصر الدول » ٣٣٧ .

كان المغول عامة ، و« جنكيز خان » خاصة ينظرون إلى الأديان المختلفة على أنها عدة وجوه لعملة واحدة ، وطرق متشعبة ، ومختلفة تقود كلها إلى هدف واحد ، وهى عبادة الاله الخالد ، الأبدى الوجود ، المتربع على عرش فوق السماء الزرقاء . من هذا المنطلق لم يُمَيِّز أصحابُ دين على آخرين ، ولم يضع ديناً فوق دين ، بل نظر إليها وإلى أصحابها كل ذلك بنظرة متساوية . فقد كان ينظر إلى المسلمين بعين الرضا والاحترام ، كما كان يمنح نفس المكانة للمسيحيين والوثنيين . أما نظرته إلى العلماء والمثقفين والاداريين ، فقد كانت نظرة اجلال وتقدير ، واحترام . وعلى هذا المنوال سار أبناؤه وأحفاده ، رغم اعتناق بعضهم لهذا الدين ، أو ذاك ، أو بقاء البعض الآخر على ديانة والآباء والأجداد ، وهذا ما أشار إليه الجوينى ، جاء به كشىء منصوص عليه فى « الياسا » . ولعل هذا الاحترام من قبل أبناء « جنكيز خان » وأحفاده ، للأديان المغايرة لما يعتقدونه لورود نص له فى « الياسا » حيث جاء به الجوينى قائلاً بأن أبناءه وأحفاده يجب إلا يحيدوا عما جاء فى « ياسا جنكيز خان » وهى :

ـــ يجب أن ينظروا إلى كافة الأديان على أنها شىء واحد ، وإلا يميزوا واحداً على الآخر[1] .

أما ابن العبرى « بارهبروس » فقد أورد هذه الفقرة تحت رقم (٢) عنده ، على نحو مشابه إلى ما جاء عند الجوينى ، إلا أنه أضاف بأنه :

ـــ يجب أن يمقتوا الشر والأشرار . « كما أضاف بأن المغول أحبوا المسيحيين فى أول الأمر ، إلا أنهم فيما بعد أصبحوا لا يطيقون تصورهم ، فقد تحولوا (يعنى المغول) إلى مسلمين ، وباعداد هائلة »[2] .

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ١٨/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٦/١ .

(٢) "The Chronograph The Kings of the Arabs" 354.

كما أن المؤرخ الأرمنى « ماهاكيا Mahakia » أورد مسألة تسامح المغول الدينى ، ونظرتهم المعتبرة تجاه رجال الدين ، الذين سماهم خدام الله وعبيده ، مع غيرها من القوانين ، وعقوباتها ، مثل : الكذب ، والزنا ، والسرقة ، وغير ذلك . إلا أنه أضاف أمراً آخر ، وهو إعفاؤهم وأماكن عباداتهم من الضرائب الحكومية[1] .

بناءً على ذلك يمكننا أن نضع صيغة للقوانين المنظمة لهذا الجزء من « الياسا » ، اعتماداً على ماورد فى مصادر ، الأولى التى تسنى لنا العثور عليها ، بشكل نحاول فيه أن يتضمن فحوى روايات هاتيك المصادر مجتمعة ، وذلك على النحو التالى :

١ ــ يجب أن ينظر إلى كافة الأديان نظرة احترام وتقديس ، وعلى قدر المساواة ، فلا يفضل دين على آخر ، أو أن تحابى ملة على غيرها .

٢ ــ يعامل رجال كل ملة ، وخدامها ، بكل تقدير واحترام ، ويعفوا من جميع الخدمات ، التى يقدمها الأفراد العاديون إلى الدولة ، لأنهم شفعاؤنا (حسب زعمهم) عند الله .

٣ ــ يجب أن ينظر إلى أماكن عبادة كل دين نظرة اجلال وتقديس .

٤ ــ يعفى من الضرائب ومن الخدمات العامة التى تقدم للدولة ، جميع المنقطعين لعبادة الاله الأبدى ، الخالد البقاء ، لأنهم نذروا حياتهم للزهد ، والتنسك ، والتعبد لله « وهذه الفقرة تشمل من المسلمين : أيمة المساجد ، وخدامها والقيميين عليها ، والمؤذنين والقراء والمعلمين للقرآن والحافظين له والمنقطعين للعبادة » وتشمل من فى حكمهم من اتباع الأديان الأخرى ، وكذلك كل من يقوم على اعداد القبور ، وتهيئة الموتى ، واعداد الجنائز ، والترتيب لها لمواراتها إلى مثواها الأخير كتغسيل الميت ، وتحنيطه ، وتكفينه ، والاشراف على مواراته ، ومن فى حكمهم من أصحاب الديانات الأخرى » .

(١) Riasanovsky, "Fundamental", P. 85. Patkamov "The History of the Mongols Based on the Armenian Annals" see also W. Rubruck "The Journey.." 121 - 125; J. Carpini, "The History..." 14.

« الياسا والآداب العامة » :

كان هناك العديد من التقاليد والأعراف العامة تسود المجتمع المغولى قبل ظهور « جنكيز خان » . ومع ذلك نجد بعض المصنفين يدرجونها تحت قائمة القوانين التى نسبت إلى هذا الخان المغولى . لعل من أهم هاتيك القوانين مسألة أحقية المسافر ، الذى يمر بقوم يأكلون ، مشاركتهم طعامهم ، حتى وان لم يدعوه إلى ذلك ، وبدون أن يكون هناك سابق معرفة بعضهم ببعض . ثم مسألة واجبهم أن يدعوه لمشاركتهم ، والافساح له بينهم ، حتى دون سابق معرفة أيضاً ، هذا بالاضافة إلى فقرتين أخريتين ، يظهر أن الخان اضافهما لأسباب سنشرحها عند تناول كل واحدة من ذلك .

من المعروف بين المغول أن كل من صادف انساناً واحداً ، وهم يأكلون طعاماً لهم ، سواء أكان المار رجلاً أو أكثر ، فإن له ، أو لهم ، الحق بأن ينزلون مع من يأكل ويشاركونه مأدبته ، أياً كانت ، وبشكل جماعى ، كما أن من واجب أصحاب الأكل ، أو صاحبه ، أن يدعو كل من يمر به بأن يجلس ، وأن يأكل معه سواء قبل البدء فيه ، أو أثناء ذلك . وقد وقع شيء مماثل لهذه الحادثة ، لوالد « جنكيز خان » « يسوكاى بهادر » ، حيث وجد ، فى آخر سفرة له ، قوماً من التتر يأكلون من طعام لهم ، فجلس ، وشاركهم فيما كانوا يأكلون ، سواء دعواه أم لم يدعوه . وهنا تذكر الروايات أن التتر عرفوه ، وقد ظن هو أنهم لم يعرفوه ، فدسوا له سماً بطريقة ، أو بأخرى ، فيما قدم له من أكل ، وذلك للعداوة التى كانت متأصلة فيما بينهم « بين المغول والتتر » فمات « يسوكاى بهادر » من أثر ذلك السم[1] .

هذه الحادثة جعلت « جنكيز خان » على ما يظهر لنا ، يدون هذا العرف

(١) أنظر : كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ٥٩ ، ٦٦ . أما عن المغول والتتر وعلاقتهما ببعضهما فانظر : رشيد الدين « جامع التواريخ » ٥٧/١ ــ ٧٠ ، كذلك ، ما ورد فى حواشى المرجع الأول من مصادر ومراجع فيما يتعلق بهذا الموضوع .

المغولى كفقرة من الفقرات الواردة فى « الياسا » ، ثم يضيف إليها فقرتين أخريتين ، كضابط لها وصمام أمان ، ولئلا يتركها هكذا ، لتصبح مجالاً ، وفرصة ، لذوى النفوس الحاقدة لتنفيذ أغراض عدوانية كتلك التى وقعت لوالده . فجاءت تلك الفقرة تحتم على كل صانع طعام ، أو صاحب أكل ، يقدمه لأحد من الناس ، فرادى كانوا أم جماعة ، بأن يبدأ هو أولاً فى الأكل ، ويتناول مما سيقدمه إلى أضيافه ، كما أنه يحق للضيف الا يأكل من طعام رجل ما لم يبدأ صاحبه أولاً بالأكل منه .

يظهر لنا أن « جنكيز خان » رأى من الحيف والأجحاف فى حق المُطْعِم ، أن يستغل المسافرُ ، أو المسافرون ، الذين يمرون على رجل ويشاركونه طعامه ان يستحوذوا عليه كله ، أو على أغلبه ، انطلاقاً من مبدأ هذا العرف ، أو التقليد ، لذلك نجده يضع له ضابطاً فى فقرة أخرى ، حيث حددت بالا يستأثر واحد من الناس من الأكل بأكثر من غيره ممن يشاركه فيه . ومن أتخذ مضغة من طعام فلم يبتلعها ، أو غص بها ، فانه يقتل . إذاً فلم يأت ذلك الخان بجديد هنا ، فيما يتعلق بالفقرتين الأخيرتين ، إلا أنه جعلها قانوناً ضمن « الياسا » .

بناءً على ما سبق نقاشه يمكننا أن نصيغ ما سبق ذكره ، من بنود على النحو التالى :

١ ــ يحق لكل مسافر أن يشارك أى انسان يجده فى طريقه يأكل طعاماً له ، دون أن يتلقى دعوة منه .

٢ ــ يجب على كل صاحب طعام يعرج عليه مسافر دعوته إلى مشاركته ما يأكل .

٣ ــ يتحتم على المسافر المدعو إلى تناول طعام أن يلبى الدعوة ، وأن يشارك صاحب الطعام أكله .

٤ ــ إذا جلس قوم على طعام ، فليس لواحد منهم أن يأكل أكثر من غيره ، ومن يفعل ذلك يقتل .

٥ ــ يجب على صاحب الطعام أن يأكل منه قبل أن يشرع المُطْعَمُون فى الأكل من طعامه .

٦ ــ يحق لِلْمُطْعَمِ أن يرفض أكل ما قدم له من طعام ، ما لم يأكل منه صاحبه أولاً .

« الياسا » والتنظيم العسكرى عند المغول :

أن الدارس لتاريخ المغول ، قبل ظهور زعيمهم «تيموجين» وتوحيد قبائلهم المختلفة ، تحت رئاسته ، وتدبيره وسلطانه الشخصى بوجه عام ، وتاريخ صراع هذا القائد ، حتى اعلانه « جنكيز خان » عليهم على وجه الخصوص ، ليجد بأن ولاء أية قبيلة من قبائل ذلك المجتمع ، بل ولاء أى فرد من أفراده ، لأى زعيم ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً ، بل وأساسياً ، بما يمتلكه ذلك الزعيم من ثروة عينية ، يضعها بين يدى اتباعه ومريديه ، وتحت تصرفهم ، وفوق ذلك كله مدى قوته وحسن تدبيره وحنكته فى قيادة المعارك ، لأن ذلك قد يقود إلى الانتصارات الدائمة على الخصوم فى ميادين القتال ، ثم أسر الأعداء وسلبهم ما يملكون ، فهذا يجعل أيديهم ممتلئة على الدوام بالغنائم . اضافة إلى بعض المؤهلات الشخصية الأخرى ، كالشجاعة ، والحزم ، والضبط الادارى ، وان كانت هذه الصفات عندهم أمراً ثانوياً . فقد رأينا اتباع « تيموجين خان » ينفضون عنه عندما هزم أمام أعدائه ، بزعامة « أونكَ خان » ملك « الكرايت » وحلفائه ، حيث لم يبق معه سوى عدد لا يتجاوز مجموعهم عدد أصابع اليدين ، ثم يعودون إليه فى غمضة عين ، بمجرد بلوغهم نبأ يفيد بأنه أصبح يمتلك عدداً كبيراً من الخراف . لذلك فقد كانت تجربة « جنكيز خان » مع قومه مريرة ، لدرجة أفقدته كل شىء ، وهو مازال فى أول مشروع يؤسس ملكاً له . ولولا ظروف معينة ، طرأت لانتهى « تيموجين » ومعه أنتهت حياته ، وقوته ، وقد سبق لنا مناقشة هذه النقطة فى بحث سابق[1] .

---

(١) « سقوط الدولة العباسية » ٦٩ ــ ٧١ ، ١٠٩ ــ ١١٤

بناءً على هذا ، نجد « جنكيز خان » يحتاط لدرء تكرار شيء من هذا ، فيستغل ، على مايبدو لنا ، ذلك الاجتماع العام ، عندما توج « جنكيز خان » ، باصدار مجموعة قرارات ، ذات فعاليات قوية ، لتدعم نفوذه ، وسلطانه ، وكل من يحتل منصب الخان من أبنائه وأحفاده ، وكل هاتيك القرارات صريحة العبارة فى تحريم التلاعب بالولاء ، بل تؤكد جميعها على الانضباطية والولاء له ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر . ولقد جاء العقاب صارماً لمن يهرب ، أو يتخلى عن سيده أو رئيسه المباشر ، أو يتراخى فى قتال الخصوم ، أو لم يسارع فى انقاذ رفيق له قد أسر ، مهما كلفه ذلك . كل هذه الأمور ستتضح لنا فى فقرات قانونية ، يذكر بأنها جاءت فى « الياسا » .

لقد كان ذلك النظام يتضمن المراقبة الشديدة ، وبشكل دائم وفى غاية من الحزم ، للحيلولة دون الفوضى واللامبالاة ، وتفرض الانضباطية ، فى نظام صارم يحول دون تحول فرد أو جماعة من فصائلهم إلى فئات من الكتائب العسكرية المغولية الأخرى . ثم فوق ذلك كله ، اشغالهم الدائم بالفتوحات والتوسع ، لكسب أراضى جديدة لامبراطوريتهم ، أما إذا لم يكونوا مشغولين بالغزو والفتح ، فإن نظاماً قد أستحدث لهذا وهو اشغالهم بالصيد ، كتمرين عسكرى ناجح جداً ، إذ أن المتهاون فيه يعاقب بالموت ، اضافة إلى فوائد غير ذلك ، كما سنرى فيما بعد .

إن أول نظام عمل به « جنكيز خان » كأسس الانضباطية ، وقتل الفوضى ، هو أنه قام بتقسيم الشعب ، بأسره إلى النظام العشرى ، وأصدر بذلك قرارات يمكننا استنتاجها مما جاء به كل من الجوينى وابن العبرى (وهو بارهبروس) إضافة إلى أن شيئاً من هذا جاء عند « جون الكربينى » . ولعل هاتيك القرارات أو الاصدارات الخانية ، التى تذكر مصادرنا بأنها جاءت فى « الياسا » تكون قد جاءت بالصيغ التالية :

١ ــ تقسم الأمة إلى عشرات ، وإلى مئات ، وإلى أُلوف ، وإلى عشرات ألوف ، يقوم على رأس كل تسعة رجال منهم عاشرهم وهو عريفهم ، ويعين على عشرة عرفاء واحد من بينهم كرئيس أعلى على مائة (أى على عشرة عشرات) ، ثم يتم اختيار واحد من بين الرؤساء العشرة لفصائل المئات ليكون قائداً لهم ، وبذلك يصبح قائداً لألف رجل ، وأخيراً ينصب رجل واحد من بين مجموع رؤساء الألوف العشرة ليكون قائداً عاماً « نويان » أى أنه قائد لـ تومن Tumen .

أوضح « جون الكربينى » ، فى مكان آخر ، المسؤولية الهرمية لهذا التقسيم ، بشكل أكثر دقة ووضوحاً ، فاعتبرتُه مكملاً لما نحن بصدده ، حيث يقول بأن الرؤساء الكبار هم الذين يحددون مراكز قادة الألوف وسلطانهم ، كما أن قادة الألوف هم الذين يعينون مسؤوليات قادة المئات ومواقع تمركزهم ، وقادة المئات هم الذين يوزعون واجبات قادة العشرات وصلاحيات كل فرد منهم[٢] . وقد أشار هذا المصنف فى مكان آخر إلى أن هذا الأمر هو من القوانين التى أصدرها « جنكيز خان »[٣] . من القرارات الأخرى كذلك ما يلى :

٢ ــ لا يجوز مطلقاً ، وتحت أى ظرف مهما كان قاهراً ، لأى رجل أن ينتقل من فئته التى ينتمى إليها ، إلى مجموعة أخرى ، سواء من العشرات إلى المئات ، أو من الأخيرة إلى مجموعات الألوف ، أو من هذه إلى فصائل عشرات الألوف ، مهما كانت الأسباب ، ومن يفعل ذلك يحاكم على ملأ تمهيداً لاعدامه ، كذلك : لا يسمح ، تحت أى ظرف من الظروف ، لأى فرد ينتمى إلى أية مجموعة ، أن يهرب من مجموعته إلى أى من المجموعات الأخرى .

---

(١) أنظر فى هذا الخصوص بعض مصادر مادتنا الأولى مثل « الجوينى » « جهانكشاى » ٣١/١ ، الترجمة الانجليزية ٣١/١ ، ابن العبرى « تاريخ مختصر الدول » ٣٥٤ ، كذلك J. Carpini, "History...", 32 - 33.

(٢) J. Carpini, "History...", 27.

(٣) Ibid., 26.

ومن يفعل ذلك فانه يحاكم على ملأ ، ويقتل ، كذلك : أن أى عريف من عرفاء العشرات ، أو رئيس من رؤساء المئات ، أو قائد من قواد الألوف ، أو قائد عام من قادة العشرة آلاف يقبل فى مجموعته رجلاً ينتمى إلى غيرها ، فانه يحاكم على ملأ من القادة الآخرين ، ثم يقتل ، كذلك : أن من يقوم بايواء جندى ، أو قائد آبق من مجموعته ، فانه يحاكم على ملأ ، ثم يقتل ، حتى وإن كان الهارب ، قائداً أم جندياً ، من أبناء « جنكيز خان » فانه يقتل ، أن هو قبل أحداً فى مجموعته ، أو أوى هارباً ، أو كان هو الهارب .[1]

وقد طبق هذا القرار ، مع غيره من القرارات الأخرى ، على أبناء الخان نفسه ، وأخوانه وذويهم ، كما يطبق على أقل رجل فى الدولة ، فلا فرق بين فقير أو غنى ، أو رفيع أو وضيع ، كل ذلك ليتفادى أى انتهاك لـ « الياسا » ، كذلك :

٣ ــ لا يجوز لأى امرء أن يتخلى عن قائده ، كما أن القائد ليس له الحق ولا يستطيع أيضاً أن يطرد أحد رجاله من مجموعته[2] .

إذا كانت هذه قرارات « جنكيز خان » جاءت فى « الياسا » تحدد مسؤولية كل فرد وحقوقه وواجباته مع من تحته ومع الذى فوقه ، كتنظيم انضباطى ، فى حركات الجندى وسكناته ، فكيف كانت علاقته بغيره فى ميدان المعركة مع زملائه ، وكيف يتعامل مع عدوه ؟ مادام قد وضع هذا الخان كل شىء فى دولته ليخدم سلطانه ويقوى نفوذه ، فى شكل قرارات ، فانه ، بكل تأكيد ، لابد أنه جعل الأولوية فى قراراته ، الواردة فى « الياسا » تتعلق بالقتال ، وشؤون الجندية فى ميدان المعركة ، ومنازلة الخصوم ، وهى أمور هى العمود الفقرى للامبراطورية المغولية وعمارها ، بل أن أكثر من تسعين فى المائة من نشاط المغول هو القتال ، وخوض المعارك ، واحدة بعد

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ٣٤/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٣/١ كذلك بارهبروس « تاريخ مختصر الدول » ٣٥٥ فقرة ٧ .

(٢) نفس المصدرين السابقين وصفحاتهما . كذلك أنظر « شجرة الأتراك » ٩٥ ــ ٩٦ .

أخرى ، وبشكل متواصل لأكثر من مائة سنة . إذاً فلا بد أن يكون هناك أمور قانونية ، صدرت بموجبها قرارات خانية فى هذا الشأن .

مما جاء به لنا « جون الكربينى » يمكننا استنتاج بعض هاتيك القرارات العسكرية ، وبالتالى ، **وكاجتهاد شخصى فقط** ، لعلى اتجاوز وبحذر شديد واقترح صياغتها ، كشىء يذكر بأنه ورد له ذكر فى « الياسا » . والذى جعلنى أقول ذلك هو صرامتها ، وثقل وطأتها ، وشدة عقوبتها ، كل ذلك يوحى بأنها من وضع ذلك الخان ، وبعد تجربته المريرة مع « أونك خان » وحلفائه ، فى أول صراعه لتكوين امبراطوريته ، والتى كاد أن يذهب ضحية الفوضى العسكرية فى صفوف جنده . إضافة إلى أن هذه الأمور لم تكن مألوفة قبله ، على ما بدا لى من خلال اطلاعى القاصر . من هاتيك القرارات ما يلى :

٤ ــ أن من يفر من ميدان المعركة أمام العدو يقتل ، وإذا قام رجل ، أو اثنان أو ثلاثة ، أو حتى أكثر من ذلك ، وهم من ضمن مجموعة العشرة ، فولوا العدو ادبارهم فانهم يعدمون جميعاً ، كذلك :

٥ ــ إذا هربت كل المجموعة ، المكونة من عشرة ، فيتحتم على بقية المجموعات الأخرى المكونة للمائة أن تتقهقر إلى الوراء وبانتظام ، وإذا لم يفعلوا ذلك فانهم يقتلون ، (بمعنى أنه يجب على كافة الكتيبة العسكرية أن تنظم انسحابها ، وبشكل جماعى متفق عليه بين قادة العشرات ، وقائدهم الكبير ، وإلا فالذين يفرون من أمام العدو يقتلون . فأما اقدام جماعى ، أو انسحاب جماعى ، وعلى أى وجه ، وإلى اية ناحية ليكونوا منظمين حتى فى الانسحاب[1] . كذلك :

٦ ــ إذا أقدم رجل أو أكثر على اقتحام صفوف الأعداء ، يقاتلونهم بجسارة ، فانه يتوجب على البقية الباقية من أفراد المجموعة أن يفعلوا مثل ما فعل أصحابهم ، ومن لم يتقدم فانه يقتل ، كذلك :

(١) ، (٢) J. Carpini, "History..", 46 - 47.

٧ ــ إذا أسر الأعداء واحداً ، أو أكثر ، فإن على بقية رفاقهم من العشرة ، أن يسارعوا لانقاذه ، حتى لو تطلب الأمر أن يقعوا فى الأسر أنفسهم ، ومن لم يفعل ذلك يقتل ، كذلك :

٨ ــ كل من يترك رفيقه ، فى حالتى الهجوم على الاعداء ، أو الانسحاب والتقهقر بانتظام ، وما لم يكن الأمر جماعياً ، تنزل بهم العقوبات الرادعة ، حيث تقوم فرقة مغولية من المقاتلين فتلاحق الكتيبة المنهزمة فتمطرها بوابل من سهامها القاتلة ، حتى تفنى كافة المنهزمين ، بينما يواصل الباقون القتال[١] . كذلك :

٩ ــ كل من يترك قتال الأعداء ، بعد هزيمتهم ، ثم يشرع فى السلب والنهب ، وقبل أن يتم القضاء على الخصوم نهائياً ، فانه يقتل دونما شفقة بعليه أو رحمة بذويه[٢] ، كذلك :

١٠ ــ من نسى متاعه ، أو وقع منه شىء ، أثناء نزال العدو وخصامه ، وفى حالتى الهجوم أو التربص بالأعداء ومحاولة جرهم إلى كمين معد لهم ، تحت مكيدة الانسحاب الظاهرى ، أو سقط من سلاحه شىء ، كرمح ، أو سيف ، أو قوس ، فانه يتحتم على رفيقه المقاتل الذى يجرى أو يسير خلفه ، راكباً كان أم ماشياً ، أن يقف ، أو ينزل أن كان راكباً ، من على ظهر دابته ويأخذ ما سقط من صاحبه أو نسيه ، وأن يعيده إليه ، ومن لم يفعل ذلك فانه يقتل ، كذلك :

١١ ــ لا يشترك قادة الجيش العامين فى القتال ، بل يجب على كل قائد عام « نويان » أن يظل بعيداً وفى مكان مناسب ، بحيث يدير سير المعركة منه . كذلك :

١٢ ــ من يطعم أسير حرب أو يسقيه ، أو يكسوه ، دون موافقة آسره ، أو علمه فانه يقتل ، كذلك :

١٣ ــ من يأوى أسيراً هارباً ، ولم يعده إلى آسره فإنه يقتل .

---

(١) ، (٢) J. Carpini, "History..", 46 - 47.

(٣) J. Carpini, "History...", 46 - 47.

الخاتمـــة :

درسنا فى هذا البحث المتواضع ، بعض الفقرات التى جاءت فى ما عرف فى التاريخ بـ « الياسا أو القوانين » والتى تنسب إلى جنكيز خان ، فقسمناها إلى أقسام ، حسب اختصاص كل فقرة ، أى أن كل مجموعة جعلناها مستقلة لعلاقتها بموضوع واحد . فدرسنا الفئة التى تخص الخان ولقبه وسلطاته ، التى يستمدها من الجمعية العمومية الشعبية ، وكذلك نظرة « الياسا » الى المجتمع الدولى . ثم أتينا بعد ذلك بكل فقرة من فقراتها ، وهذا حسب اجتهادنا الشخصى وما أمكننا استنتاجه ، لها علاقة بالجنايات تحت عنوان « الياسا الجنائية أو العقوبات الجنائية » ، وكل ما يخص النواحى الدينية جمعناه وأدرجناه تحت « الياسا الدينية » . هذا بالاضافة إلى أمور تتعلق بالآداب العامة ، فاقترحنا أن يكون « الياسا والآداب العامة » ، وأخرى ذات مسائل عسكرية فأتينا بها كوحدة مستقلة تحت عنوان « الياسا والتنظيم العسكرى عند المغول » .

وفى الختام رأيت أن أنوه إلى حقيقة مهمة هى : أن هناك قوانين ، غير هذه التى تطرقنا لها ، ورد لها ذكر ، بشكل أو بآخر ، فى بعض المصنفات الأولية المعاصرة المتعلقة بتاريخ المغول ، أو ماله صلة به . من هاتيك القوانين ما يذكر أموراً ادارية ، أو سياسية أو تجارية أو البريد وخدماته ، أو مسائل اجتماعية ، كالمواريث وواجبات الفرد وغيرها . لعلها تجد من يدرسها أو بعضها ، بشكل أو بآخر ، من باحثينا فى العالم العربى ، ممن له اهتمامات . فيتطرق إلى ما بحثناه بالنقد البناء ، لعله يساعدنا فى تكوين قاعدة أو فكرة شمولية لنخرج بنتائج ودراسات أفضل من هذه التى أتينا بها هنا ، وهى جهد المقل .

والله من وراء القصد وهو المستعان ....

مصادر البحث ومراجعه

أولا ــ المصادر القديمة :

أ ــ المخطوطات

ــ العمرى ، شهاب الدين بن فضل الله — لغة المصدر: عربية
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » : مخطوطة أيا صوفيا (بمكتبة السليمانية) ، رقم ٣٤٣٩ .

ب ــ بلغة اسلامية (عربية وفارسية)

ــ ابن بطوطه ، محمد ، — عربية
« رحلة ابن بطوطه » ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م

ــ الجوزجانى ، القاضى منهاج الدين سراج ، — فارسيه وله
« طبقات ناصرى » تحقيق عبد الحى حبيبى ، كابل ، ١٣٤٣ هـ . ش حققه وترجمه إلى الانجليزية ، الميجر/ هـ . ج . رافرتى ، لندن ، ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م ، أعيدت طباعة الترجمة الانجليزية فى عام ١٩٧٠ م . — ترجمة انجليزية

ــ الجوينى ، علاء الدين عطا ملك ، — فارسية
« تاريخ جهانكشاى » تحقيق الأستاذ : ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ هـ/١٩١١م ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، ١٣٥٥ هـ/١٩٣٧ م . ترجم إلى الانجليزية على يدى الأستاذ الدكتور/ج . أ . بويل ، تحت عنوان : « تاريخ فاتح العالم » ، مطبعة جامعة مانشستر ، ١٩٥٨ م . — ترجمة انجليزية

ــ رشيد الدين ، فضل الله الوزير بن عماد الدولة ،
« جامع التواريخ » حـ ١ من بداية قبائل المغول حتى نهاية حكم تيمور قاآن ، حـ ٢ من بداية سلطنة هولاكو خان — فارسية

يشطفونها بالمرق الذى طبخ فيه اللحم ، فيعيدون ذلك المرق إلى الاناء الذى نقل فيه اللحم والمرق بعد الانتهاء من طبخه ، كما أن الملاعق والشوك تنظف بنفس الطريقة .

يعتبرُ الانسانُ المغولى من الذنب ، أن يتلف أى طعام أو شراب ، بأية طريقة كانت ، فالعظام لا تعطى إلى الكلاب إلا بعد قرض ما يستطاع قرضه أولاً ، ثم أخذ ما تحويه من المخ ، ثم بعد ذلك تعطى الكلاب فضلات العظام[1] .

ومع أن المغول تحضروا ، بحكم تقليدهم للشعوب التى كانت أكثر تحضراً منهم ، واعتناقهم لأديان مختلفة باختلاف الشعب أو الشعوب التى خضعت لنفوذهم ، إلا أن نوعية اللحوم ، المكونة بصفة رئيسية من لحوم الخيل ، والطريقة العامة فى الطبخ ، وكيفية تقطيع اللحم ثم طريقة تقسيمه ، مازالت هى طريقة الآباء والأجداد ، التى كانت متبعة فى الموطن الأصلى فى منغوليا .

وحول هذا الموضوع ، يحدثنا ابن بطوطة ، بعد قرن ونصف من خروج المغول من عزلتهم شرق جبال « الطاى » وشمال صحارى منغوليا ، قائلاً بأن طعامهم من لحوم الخيل والغنم حيث يقدم مسلوقاً ، وبعد أن ينضج يأتى « الباروجى »[2] وهو مُقَطّعُ اللحمِ ، وعليه ثياب حرير ، وقد ربط عليه فوطة حرير ، وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ، ويكون لكل أمير باروجى (باوورجى) ، فإذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع « الباروجى » اللحم قطعاً

(١) Carpini, "History...", PP : 16 - 17.

(٢) صحة هذه الكلمة « باوورجى » أو « بوكاوول » .. وهى كلمة مغولية ــ تركية ، وتعنى المشرف على الطعام والشراب ، وقد كانت من الوظائف المهمة التى لا يوكلها « جنكيز خان » (ومن بعده من خلفائه) إلا إلى من يثق فيه . ــ هذا الموضوع أنظر المؤلف الروسى الكبير : W. W. Bartold, "Turkestan Down to tne Mongol Invasion", Gibb Memorial Trust New Series, V. London, 1968 & 1977, P : 382 & Note : 4.

صغاراً ، ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطاً بالعظم ، فانهم لا يأكلون منه إلا ما أختلط بالعظم[1] .

حـ ــ ما يشربه المجتمع المغولى :

أما ما يتعلق بما يشربه الفرد فى ذلك المجتمع الغريب ، فى كثير من مناحى حياته ، فَيَعْتَبِرُ الانسانُ المغولى حليبَ الفرس شرابه المفضل ، حيث يحتل قائمة أنواع ما يشربه . فهو يشربه بكميات كبيرة جداً ، فهو لا يكاد يشرب غيره من السوائل إذا ما توفر هذا النوع من أنواع شرابه ، أو يمكن أن يحصل عليه بسهولة . لهذا السبب ، على ما يبدو لنا ، جعل الرجل من أهم مهامه العائلية العناية بالخيول ، وحلب أفراسها وصربها . فمعدل ما يملكه الرجل ثمان عشرة فرساً لشرابه ، حيث يقوم المغولى بفرس وتدين فى الأرض ، على بُعْدٍ مناسبٍ ، ثم يقوم بايصالهما بحبل طويل ، حيث يربط فيه مهر فرسه التى يرغب حلبها ، لكى يحصل الرجل منهم على أية كمية من حليب فرسه . وفى الصباح الباكر يأتى بتلك الفرس إلى مهرها المربوط فى ذلك الحبل ، فتأنس بالوقوف بجانبه ، فتعطى حليبها لمن يقوم بحلبها ، والذى غالباً ما يكون من الرجال . أما إذا كانت الفرس جموحاً ، ولم تسمح لأحد بحلبها ، فانها تربط ، ويؤتى بمهرها ، ويسمح له بالرضع منها قليلاً ، ثم يبعد عنها جانباً ، ويحتل الرجل الحالب مكان المهر ، حتى ينتهى من حلبها . وهكذا ، تَحْلَبَ فرسَ بعد أخرى حتى يتجمع لديه كمية كبيرة من الحليب .

يقوم بعد ذلك بوضعه فى اناء جلدى كبير « السقاء » مخصص لهذا الغرض ، ثم يقوم بمخضه بواسطة عصاة غليظة جداً ، ذات رأس كرأس الرجل ، مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض ، يستمر فى هذه العملية ، حتى يستخلص منه ما تكون عليه من الزبدة ، ثم يشرب ذلك اللبن .

يصف لنا « وليم الربركى » مذاق هذا النوع من اللبن . فيقول بأنه يلذع

(١) ابن بطوطة ، « رحلة ... » ص : ٣٣٠ .

لسان المرء أثناء الشراب ، فله طعم كطعم الخل ، وعندما يتوقف عن الشرب ، فانه يترك على اللسان مذاقاً كطعم عصارة اللوز ، ويحدث عند شاربه نشوة روحية وعقلية عجيبتين . ثم يردف « وليم » القول ، بأن هذا اللبن قد يشمل الرجل الضعيف الاتزان[١] . إلا أن ابن بطوطه يقول لنا بأنه ذاقه ، ولكنه « ...، لا خير فيه ... »[٢] . أما الرحالة الايطالى « ماركو بولو » فيذكر لنا بأنه جيد جداً للشراب ، حيث يعرفون جيداً كيف يصنعونه بطريقة ممتازة[٣] .

ان هذا النوع من الشراب هو الشراب المفضل للسواد الأعظم فى المغول . أما شراب الخاصة منهم ، وهم الرؤساء وعليه القوم ، فإنه يُصْنَعُ لهم الـ « قرا — كزمس Qara - Kuzmos » أى « شراب الكزمس الأسود » . حيث يحلب حليب الفرس بعد حلبه ، ثم يمخض حتى يترسب فى قاع انائه كل مادة تجمعت أعلاه ، ويبقى كل شيء نقى إلى أعلاه ، ويصبح لونه مثل لون مصل اللبن ، أو المسك الأبيض ، فتعطى الحثالة الى الخدم (وهى مادة بيضاء اللون وذات تأثير لارتخاء الأعصاب والخمول ثم النوم) أما السائل الصافى ، فيقدم إلى الرؤساء وعليه القوم كشرابهم المفضل . ويصفه « وليم الربركى » بأنه شراب ممتاز ، ومنشط جدا ، وهو بعكس ما يقدم للخدم[٤] .

تورد لنا بعض مصادر مادتنا شدة حب المجتمع المغولى لحليب الأفراس . ففى هذا الخصوص ، يورد لنا « الربركى » رواية حول الكمية الكبيرة التى كان يستهلكها واحد من أسرة جنكيز خان . كان ذلك الأمير هو حفيد جنكيز خان « باتوبن جوجى » ، حيث كانت له مملكة والده التى ورثها هو الآخر عن جنكيز خان . ولقد لعب « باتو » هذا دوراً سياسياً وعسكرياً بارزاً

(١) Rubruck, "The Journey..", Ed., Dawson, PP : 98 - 99.

(٢) ابن بطوطة ، « رحلته » ص : ٣٣٥ .

(٣) Marco Polo, "The Description of the World", Vol. I, P : 171 also : Spuler, "The Mongol History", P : 175.

(٤) Rubruck, "The Journey", P : 99.

فى حياته ، فقد كان قائد جحافل المغول ، أثناء اجتياحها لغرب آسيا وشرق أوربا ، فى حملتهم المشهورة ، كما كان هو الذى يوصل فلاناً أو علاناً إلى كرسى الامبراطور ، لذلك كانت تسميه مصادرنا الأوربية بـ « صانع الملوك »[١] .

يذكر سفير الملك لويس التاسع الفرنسى ، « وليم الربركى » بأن « باتو » كان لديه ثلاثين رجلاً ، وهم مخصصون لتزويد سيدهم « باتو » بما يحتاجه من حليب الأفراس ، وكان كل رجل منهم يحلب حليب مائة فرس . وهذا يعنى أنه كان يجمع حليب ثلاثة آلاف فرس ، فى كل يوم ، وهذا بخلاف أنواع الحليب التى تؤخذ من مصادر غير هذا المورد[٢] .

لعل هذا الراوية الأوربى ، الذى شاهد هذا بعينيه ، وكان ممن قابل « باتو » يعنى أن هذه الكمية من الحليب هى ما يحتاجه ذلك الأمير المغولى هو وأسرته بكاملها ، وكذلك كبار رجال بلاطه ، وقادة جنده ، والقيمون على خدمة منازله ، وهم يُعَدُّون بالمئات . وذلك لمراتبة « باتو » السامقة ، بين الأمراء المغول ، حتى أننى لا أجدنى مبالغاً إذا قلت بأن « باتو » كان يعتبر أعلى مكانة من الأمبراطور « منكَو » ، الذى كان على عرش المغول ، فقد كان يخطب وده ، ويخشى بأسه أكثر من أى أمير مغولى آخر .

أما إذا لم يكن لدى المرء منهم حليب فرس ، فانه يستعيض عنه بأنواع أخرى من الحليب ، مثل حليب الضأن والماعز ، وحليب الأبقار ، وحليب النوق[٣] .

يصنع المغول السمن من حليب الأبقار بشكل أساسى ، بعد أن يستخلصون الزبدة ، وذلك بعد مخض الحليب بالطريقة المذكورة أعلاه ، ثم

(١) لمعلومات فى هذا الموضوع ، راجع « سقوط الدولة العباسية » ص . ص : ١٤٨ — ١٥٦ ، ١٦٠ — ١٦٣ . وخاصة المراجع والمصادر الواردة فى حواشيه .

(٢) Rubruck, "The Journey...", P : 99.

(٣) Rubruck, "The Journey..", P : 99.

يأتون بالزبدة فيغلونها فتصبح بعد الغليان سمنا . ونتيجة لذلك ، وكما هو معروف ، لا يتلف السمن حيث سبق أن غُلِيَ على النار بطريقة جيدة ، ويحتفظون به إلى وقت الشتاء ، حيث يقل انتاج حيواناتهم من الحليب .

كذلك فإن الأقط يصنع أيضاً من لبن الأبقار ، وذلك بالطريقة التى نعرفها نحن هنا ، فيغلى اللبن حتى يخثر ، ويصبح مادة جامدة ، ويجعل فى شكل أقراص صغيرة ، ثم يوضع فى العراء عرضة للشمس والهواء ، حتى ينشف حيث يصبح جافاً ويابساً جداً ، ثم يخزن فى أوعية خاصة به ، ويحتفظ به حتى فصل الشتاء عندما تقل ، بل وتندر ، المنتجات الحيوانية فى هذا الفصل الشديد البرودة ، والقليل فى مراعيه . إلا أن المغولى لا يأكل الأقط ، وانما يتبع الطريقة الأخرى ، وهى أنهم يضعونه فى اناء ثم يضيفون عليه ماءً حاراً ، يحركونه جيداً حتى يذوب فى الماء ثم يشربونه .

أما فى فصل الشتاء ، وعندما يقل انتاج حيواناتهم من الحليب ، فانهم يصنعون شراباً ممتازاً من حبوب الأرز ، أو الدخن أو القمح ، إذ أنه يجلب اليهم من الأقطار الزراعية المجاورة فى الغرب أو الجنوب ، ويصنع له شراباً من العسل ، لأن الانسان المغولى يبذل جميع الوسائل والمحاولات لئلا يشرب ، على الاطلاق ، الماء كما نشربه نحن ، بطريقة عادية ، وبدون أن يخلط عليه شيئاً آخر قبل أن يشربه[1] .

أما طريقة صنع شراب الحبوب فانهم يقومون بغلى حبوب الدخن ، أو الأرز ، أو القمح ، فى ماء (وهذا فقط عندما ينعدم وجود الحليب بأى نوع) حتى يصبح خاثراً ، إلا أنهم لا يأكلونه ، بل يشربونه ، وهو مادة سائلة ، بكميات قليلة جداً ــ كأسة أو كأستين ــ عند الصباح ، ولا يأكل شيئاً طوال النهار ، وفى المساء يأكلون ما يحصل لهم من لحم بعد طهيه طهياً جيداً ، ويشربون المرق بعد ذلك .

(١) John Carpini, "Mongol History", Ed., Dawson, PP : 16 - 17; Rubruck, "The Journey...", PP : 95 - 101.

فى الأوقات التى يجتمع فيها المغول ، لمناسبة معينة ، صغيرة كانت أم كبيرة ، فان عوامل الفرح الصاخب يكاد يطغى على اجتماعهم ذلك ، فيكون ما يشربون هو الشىء الوحيد الذى يكون أهم الموجودات بينهم ، وقد يكون هو العامل الأساسى والداعى إلى ذلك الاجتماع . ففى الوقت الذى يشرع فيه السيد الكبير بتناول شرابه فان أحد الخدم يصرخ بأعلى صوته « ها » ثم يدق أصحاب الموسيقى آلاتهم ، ويبدأ الفرح ، والرقص والغناء . ويستمرون على ذلك زمناً ، ثم يذهب كل واحد إلى وجهته .

أما عندما يكون هناك مناسبة ، أو احتفال كبير ، فانهم يجتمعون باعداد كبيرة ، واجتماعهم يصبح بشكل أوسع . وهنا أيضاً ، يكون الشراب ، لا الأكل ، هو الشىء الأساسى ، أياً كان ذلك الشراب ، حليباً ، أو لبناً ، أو ماءً مخلوطاً بالأقط ، أو شربة (وهى المصنوعة من الحبوب) . وتعلو صيحاتهم ، ويصفقون ، ويرقصون على أصوات الموسيقى ، حيث يرقص الرجال أمام السيد ، أو رئيس القوم ، بينما يرقصن النساء أمام زوجة ذلك السيد ، أو كبير القوم ، وهكذا يستمر الوضع لوقت قد يطول ، وقد يقصر ، ثم يتوقف الموسيقيون عن العزف ، فيقف الجميع لفترة قصيرة جعلت للاستراحة والشرب .

فى بعض الأوقات يحثون شخصاً ما على أن يشرب حتى وأن لم يكن لديه رغبة . فليس هو جيعاناً ولا عطشاً ، وأنه متعكر المزاج ، أو أن لديه مشكلة غطت سماء ليلته أو نهاره بسحابة سوداء ، جعلته يعزف عن مشاركة القوم ليلتهم أو نهارهم السعيد . وهنا يذهب بعض الصحاب ، وفى نفسية مرحة ونشوة عالية ، إليه ، ويتقدمون رويداً رويداً حتى يصلون إليه فيجرونه بشدة من كلتا أذنيه ، فيفتح فاه ويصبح بلعومه فاتحاً ، ثم يصفقون ويرقصون أمامه فيقف رجلان إلى جانبيه ، وثالث أمامه ومعه كأس من الشرب الذى يتناولونه فى ليلتهم تلك أو فى نهارهم ذلك ، فيرقصون ويغنون حوله جيئة وذهاباً ثلاث أو أربع مرات ، وفى كل مرة يناولونه شربته حتى تصبح قريبة من متناول

يده ، فيرجع حاملها إلى الوراء ، للضحك والمزاح حتى يصبح فى حالة نفسية مرحة ، وتصبح لديه الرغبة فى مشاركتهم وقتهم المرح ، بعدها يعطونه شربته ، فيزداد رقصهم وغناؤهم وتصفيقهم ، ويعلو صراخهم الصاخب عندما يشرع ذلك الرجل فى تناول شربته تلك[١] .

وعندما يرغب الرجل منهم فى السفر ، فانه لا يحمل معه زاداً ، كما نفعله نحن هنا ، أو بالأخرى كما يفعله البدوى المسافر ، ولكنه يأخذ معه قربة أو قربتين ، مملوءة من حليب الفرس ، أو غيره من أنواع الشراب ، وكذلك يأخذ اناءً فخارياً ليطبخ فيه لحم ما قد يصيده أثناء سفره . وعندما يقتل الرجل صيداً ، فانه يسلخه ، ويأخذ الكرش ، فينظفه ، ثم يضع فيه ماءَ ويطبخه على النار ، ويأكل اللحم ، ويشرب ذلك الماء . كذلك يحمل معه خيمة صغيرة من لبد يقيه المطر[٢] .

وإذا ما كان على عجلة من أمره ، للقيام بانجاز مهمة أو مشروع معين يتطلب السرعة ، فان الرجل منهم يمشى أياماً كثيرة ـــ قد تتجاوز العشرة ـــ دون أن يأكل طعاماً ، ودون أن يشعل ناراً ، وذلك لئلا تتعطل مهمته وتستغرق وقتاً أطول ينقضى فى طبخ الطعام . وإذا ما تعذر عليهم شرب حليب الفرس ، ونفد ما يملكه من الشراب ، فانه يعمد إلى خيله أو دابته التى يركبها ، فيقطع بسكينته جزءً من أحد شرايين دم ذلك الحيوان ، فيمتص من الدم المتدفق ما يكفيه ، ثم يعيد ذلك الجرح بفركه ، أو سده بأى شىء ، كتراب أو ما شابه ذلك .

وقد يحمل المسافر منهم دماً مجففاً إذا تعذر وجود ما يحمله معه . وعندما يشعر بالحاجة إلى الشراب (والشراب هنا يعنى الطعام والشراب معاً) فانه يأخذ شيئاً من ذلك الدم الجاف ، فيضعه فى قدر أو أى اناء به ماء ، فيتركه حتى يذوب ثم يشربه . كما يحمل معه بعضاً من اللبن المجفف ، وهو الاقط ،

(١) (٢) نفس المصدرين المذكورين فى الحاشية السابقة ، ونفس الصفحات .

حيث يبلغ زنة ما يحمله الرجل العسكرى منهم ، أثناء القيام بحملة عسكرية ، ما يقرب من خمسين كيلو جرامات . وفى الصباح يصنع له فطورا يتكون من أقط وماء ، حيث يأخذ الواحد منهم ما يقارب وزنه مائتى جرام ، فيضعه فى سقاء فيه ماء ، ويحركه أو يتركه ، حيث يتم ذوبانه أثناء السير من عملية الاهتزاز ، فيصبح كشراب العصير ، فيشربه عند الوقت الذى يحتاج فيه للشراب[١] .

(١) لمزيد من المعلومات فى هذا الموضوع راجع : Marco Polo. "Description of the World", Vol. I, PP : 171 ff; B. Spuler, "History of the Mongol", PP : 176 - 177.

اللباس فى المجتمع المغولى

١ ــ لباس الرجل :

يختلف لباس المرء المغولى ، الذى عاش فى منغوليا قبل وبعد ظهور المغول ، وبرزوهم كقوة ذات سيادة وسلطة دوليتين ، عن لباس أخيه الذى خرج من عزلته فى منغوليا إلى أقطار شرقية كانت أم غربية ، كما يختلف لباس الرجل الفقير عن لباس الغنى ، سواء من حيث النوعية أو الكمية ، كما يختلف لباس الرجل عما تلبسه المرأة المتزوجة . كما تختلف طريقة ارتداء ونوعية اللباس الذى يستر به جسمه ، أو الذى يقيه لفحات الحرارة الحارقة فى فصول الصيف ، وشدة البرد السيبيرى القارص فى الفصول الشتوية .

وعلى وجه العموم ، فان الانسان المغولى (ونحن نعنى هنا المغولى القاطن فى منغوليا) يرتدى ملابس ذات طابع متجانس . فهم فى مبدأ أمرهم ، وداخل مجتمعهم المغلق لم يكونوا يعرفون ما يسمى بـ « الكاب »[١] ، ولا قلنسوة البرونس[٢] ، ولا العباءة ، أو رداءً واحداً يغطى معظم جسمه . إذ أنهم يعتمدون اعتماداً كلياً فى لباسهم على جلود الحيوانات ، سواء من تلك التى يقومون بتربيتها ، أو التى تقع فى قائمة صيدهم . فهم يلبسون سترة ، على شكل « بلوزة » قصيرة ، مصنوعة من البَقْرَمَ،أومن المخمل، أو من مادة ذات تشكيلات مطرزة . وهذا النوع من اللباس يشبه العباءة إلى حد كبير ، إذ أنه مفتوح من الأمام ولكن له فتحة أيضاً من الجهة اليسرى حتى الخصر ، ثم يثنى من على منطقة الصدر ، فيربط من الجهة اليسرى برباط واحد ، أما الجهة اليمنى فانه يحزم بثلاثة خيوط .

ويمكن أن يرتدى الانسان المغولى (الرجال والنساء اللائى لم يتزوجن)

(١) هو رداء بلا كمين ، يطرح على الكتفين .

(٢) هى غطاء يرتديه الفرد ، فيغطى به الرأس والعنق معاً .

أيضاً نوعاً آخر من اللباس شبيه بالثياب ، ولكنها مفتوحة من الخلف ، أو أن تكون على نفس النمط السابق . وهذه الملابس تكون ، كما قلنا ، مصنوعة من الفراء ، بشتى أنواعه ، حيث يجعل الجزء الشعرى منه إلى الخارج ، إذ يلبسه غالباً فى فصل الصيف ، عندما يكون الجو حاراً . وهذا النوع الأخير من اللباس يكون له ذيل من الخلف ، يصل فى طوله إلى الركبتين .

وبشكل عام ، فان الرجل الغنى يلبس لباساً من الفراء فى الأوقات الباردة فى فصل الشتاء ، وغالباً ما يكون لديه ثوبان منها ، فالأول يجعل جزءه الشعرى إلى الداخل ، أى يكون ملاصقاً لجلده ، والثانى يجعل جزءه الشعرى إلى الخارج ، لكى يقيه شدة قرص برودة الثلوج عند تساقطها ، والريح الباردة عند هبوبها ببردها الصحراوى من الجنوب ، أو السيبيرى القارص من الشمال . وعادة تكون هذه الملابس من جلود الثعالب ، أو الذئاب ، أو القرود الأسيوية (التبتية أو الصينية) ، فيلبسونها قبل خروجهم من المنازل إلى العراء . أما فى داخل المنازل ، حيث الجو أقل برودة ، ويميل إلى الدفء ، فانهم يلبسون ملابس أخف من السابقة .

يقوم الأغنياء منهم ، والذين يرتدون هذا النوع من اللباس ، بتزيينها بخطوط من الخيوط الحريرية الرفيعة والدافئة ذات الملمس الناعم جداً[١] .

أما ما يلبسه الفقراء فى المجتمع المغولى ، فيكون من جلود الكلاب ، والماعز ، وما شابه ذلك[٢] . وتقوم هذه الطائفة من الناس بزخرفة ملابسها بخيوط مادتها قطنية خشنة . وبشكل عام ، فإن المواد الصوفية ، بشتى مصادرها ، تكوِّن عنصراً أساسياً فى اللباس المغولى ، وخاصة فى الأوقات الباردة . كما يرتدون لباساً (من الجلد بدون شعره) يشبه السراويل ، وآخر يلبسونه فى مقدمة الرجلين (على الساقين) كثير الشبه بما يلبسه رعاة البقر ، والهنود الحمر فى أمريكا .

(١) (٢) Rubruck, "The Journey..", P : 101.

يحلق الرجل المغولى جزءً من قمة ورأسه ، بشكل مربع ، ثم يواصل الحلاقة من الجوانب الأمامية إلى أسفل ، بشكل مخطط على جانبى الرأس ، حتى يصل إلى الأصداغ . ثم يحلق أيضاً صدغيه ، ورقبته حتى أمام فجوة العنق ، ويحلق جبهته من الأمام حتى نهاية العظمة الأمامية ، حيث يترك خصلة من شعره تتدلى إلى أسفل ، حتى حُجُب العينين . أما الشعر الذى من على جانبى الرأس ومؤخرته ، فانه يتركه ، إذ يجعل منه ضفائر ، ثم يعقصها حول رأسه إلى الأذنين[1] .

ب ــ لباس المرأة المغولية المتزوجة :

تختلف ملابس المرأة ، خاصة من حيث الكيفية لا النوعية ، عن ملابس شريكها فى الحياة من الجنس الثانى ، وكذلك عن المرأة التى لم تتزوج بعد (أى البنت) . فالمرأة المتزوجة ترتدى بلوزة طويلة ومفتوحة من الجهة الأماميةن من أعلى إلى أسفل . أما من حيث النوعية والكمية فلا يوجد فرق بين ما تلبسه المرأة وبين ما يلبسه الرجل .

ولعل الفارق المميز بين الرجل والمرأة المتزوجة هو ما تلبسه الأخيرة على رأسها . وهذا الغطاء ، الذى تلبسه على رأسها يبلغ طوله ذراعاً ، ويكون مصنوعاً من اللحاء ، أو من أغصان الأشجار الرفيعة جداً ، أو من أية مادة شعرية يعثرون عليها . ويصنع هذا الغطاء بشكل ملفوف ، ويزداد فى مساحة محيطه من أسفل إلى أعلى ، وينتهى فى القمة بشكل مدور ، وتبلغ مساحته من أعلى شبرين . ثم يوضع فى نهايته عموداً أو قضيباً طويلاً ورفيعاً ، قد يكون هذا العمود مصنوعاً من الذهب ، أو الفضة ، وغالباً ما يكون من الخشب ، ثم تُزَيّنُ قمةُ ذلك القضيب بريش الطاووس ، وجوانبه بريش ذيل البط الخفيف ، أو بأحجار كريمة . ثم يثبت غطاء رأس المرأة هذا فى غطاء آخر تحته ، يصل حتى الكتفين ، وذلك بحياكته بخيط رفيع أو سير جلدى .

(١) Rubruck, "The Journey...", PP : 101 - 102.

تقوم المرأة بعد ذلك بتغطية لباس رأسها الكبير هذا بأكمله أما ببقرم ، وأما بمخمل ، أو برداء من الحرير ، أو غير ذلك ، بعدها يمكن لها أن تحضر عند الرجال ، إذ لا يمكنها أن تخرج أمام الرجال دون أن تكون لابسة هذا الغطاء ، والذى يميزها عن غيرها من النساء الأخريات غير المتزوجات . إذ أنه من الصعوبة أن يميز المرء بين الرجال والنساء غير المتزوجات ، وذلك لتشابه نوعية وطريقة اللباس الذى يرتديه كل واحد منهم . وهناك فارق طفيف جداً وهو أن المرأة تلبس بلوزة أطول قليلاً من تلك التى يلبسها الرجل .

أما النساء الثريات ، وذوات اليسار ، فانهن يلبسن غطاء الرأس ذلك محلى بأنواع كثيرة من الزركشة ، ثم يثبتن ذلك القضيب بإحكام إلى أسفل بقلنسوة ذات فتحة إلى أعلى مخصصة لهذا الغرض ، ثم بعد ذلك ، تعقد المرأة خصلات شعرها من الخلف إلى المنطقة العلوية من الرأس ، وأخيراً تقوم بربط غطاء رأسها هذا بإحكام بحزام من تحت الذقن .

يصف « وليم الربركى » شكل النساء ، اللواتى يرتدين هذا النوع من الغطاء على رأسهن ، قائلاً بأنهن عندما يمتطين صهوات جيادهن يظهرن لمن يراهن من على مسافة بعيدة وكأنهن كتيبة عسكرية ، يلبس كل فرد من أعضائها خوذة ، ويحمل رمحاً ، لأن ما يلبسنه على رؤوسهن يبدو وكأنه خوذ ، وتظهر تلك القضبان على ذُراها وكأنها رماح[1] .

حـ ــ لباس الفتاة المغولية :

أما لباس المرأة التى لم تتزوج بعد ، فانه لا يكاد يوجد فارق كبير بين ما تلبسه الفتاة منهم وبين ما يلبسه الرجل حسبما أسلفنا ، إلا أن شعرها أكثر طولاً من شعر الرجل . وفى اليوم الذى يلى زواجها تقوم بحلق شعرها من وسط رأسها إلى المقدمة . ثم تضع عليه غطاء رأس المرأة ، السابق ذكره ، لتصبح متميزة فى مظهرها عن الرجل ، واللائى لم يتزوجن من بنات جنسها بعد ، ثم

(١) Rubruck, "The Journey..", P : 102.

لتستطيع أن تظهر أمام الرجل كغيرها من النساء المتزوجات ، وبهذا تكون المرأة قد انضمت مع النساء المتزوجات[١] .

تميل المرأة المغولية إلى السمن منها إلى تناسق القوام ، وذلك بسبب كثرة ما تأكله من المواد الدهنية ، على ما يبدو لنا . ويعتبرون المرأة جميلة كلما قلت فطاسة أنفها ، وصغر حجمه . يقول الرحالة الأوربى « وليم الربركى » بأن النساء يشوهن أنفسهن عندما يصبغن وجوههن بأصباغ تجعل النظر اليهن مؤذياً للعين . ويبدو أن ذلك المنظر المقذى فى عين « وليم » لا يبدو كما يقول عنه هذا الرحالة لدى الرجل المغولى ، فقد يكون ذلك جزءً من تجملها ، والحفاظ على بشرة وجهها . كما يذكر « وليم » بأن المرأة المغولية لا تلد لها مولوداً وهى مضطجعة على الفراش[٢] .

أما أحذية المغول ، فيقومون بصنعها حسب الطريقة المتبعة لدى غيرهم من الأمم من الجلود ، حيث يجففون ايهاب الثيران ، أو الخيول ، فيصنعون منها أحذية جميلة ، كما وصفها « وليم الربركى »[٣] .

لا يغسل الفرد المغولى ملابسه ، كما أنه لا يسمح لأحد بغسلها ، وخاصة عندما يكون الوقت ممطراً أو أن الجو ذو عواصف رعدية . وإن أراد غسلها فيكون ذلك فى حالات نادرة جداً ، عندما يكون الجو صحواً . وهنا يذكر الجوينى بأنه من عادة المغول وقوانينهم بالا يغسل أحدهم ثيابه فى جدول ماء جار ، والا يجلس فى الماء فى النهار ، والا يأخذ ماءً فى اناء من الذهب أو من الفضة ، وإن غسل ثيابه ، فعليه ألا يعلق ثيابه فى الهواء الطلق لتجف . فانهم يعتقدون بأن أى عمل من هذا النوع يزيد البرق والرعد ، فقد يزيد من هطول المطر ، وخاصة فى بداية فصل الربيع حتى نهاية فصل الصيف[٤] .

(١) نفس المصدر السابق ص . ص : ١٠١ — ١٠٣ والحاشية رقم ٣ ص : ١٠١ ، أنظر كذلك :
Carpini, "The Mongol History..", PP : 6 - 8.

(٢) المصدر السابق ، ص : ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٩٧ .

(٤) الجوينى ، « جهانكشاى » ، حـ ١/ص : ١٢٥ ، الترجمة الانجليزية ، حـ ١/٢٠٤ — ٢٠٥ .

ويقول « وليم الربركى » بأن المغول يعتقدون بأن عمل مثل هذا يغضب الرب ، فمتى وضعوا ثيابهم فى العراء لتجف بعد الغسل ، فان السماء ترعد . ومن فعل عملاً من هذا النوع فانه يقع عرضة للضرب ، ويجردون منه ملابسه ، وذلك لأنهم يخشون الرعد ويهابونه بشكل غير عادى . فعندما تبدأ السماء ترعد فانهم يخرجون كل أجنبى من منازلهم . بعد ذلك يلف كل فرد منهم جسمه فى لَبِد أسود فيختبئون فى طياته حتى ينتهى الرعد[١] .

يردف الجوينى ، حول هذا الموضوع ، القول بأن السماء عندما تبدأ تقصف بالرعد ، فانهم : « يجعلون أصابعهم فى اذانهم من الصواعق حذر الموت ... » وان لمع البرق بشدة حيث : « ... يكاد البرق يخطف ابصارهم ... »[٢] . وفى كل سنة غالباً ما يحدث أن يُصْعَقُ أحدُهم بصاعقة رعدية ، فإذا ما وقع على شخص ما من بينهم بلاء من هذا النوع فان أفراد مجتمعه يقومون بعمل سيء معه ، وهو أن يطردوا أسرته وكل من يلوذ به وجميع أفراد عشيرته خارجاً عن بقية أعضاء القبائل الأخرى ، فيصبحون منبوذين ، ويعيشون حياة البعير الأجرب لمدة ثلاث سنوات . وطوال هذه المدة ، لا يسمح لأحد منهم أن يدخل مخيم أو مساكن الملك ، أو الأمراء الآخرين . كما يحدث الشيء عينه عندما تقتل الصاعقة شيئاً من أى قطيع من قطعان حيواناتهم ، فان أصحاب ذلك الحيوان ، أو الحيوانات المصعوقة يمرون بنفس التجربة لمن مات لهم انسان بصاعقة ، حيث يُطْرَدُون من مجتمعهم لعدة أشهر . وإذا ما حصل شيء من هذه الأحداث فانهم لا يأكلون طعاماً طوال الأيام الباقية من ذلك الشهر ، وفى نهاية ذلك الشهر يقومون بعمل احتفال بمناسبة انتهاء الشهر المشؤوم[٣] .

(١) Rubruck, "The Journey...", P : 103.

(٢) قرآن كريم ، سورة البقرة(٢) ، آيات : ١٨ — ١٩ .

(٣) الجوينى ، « جهانكشاى » حـ ١/ص : ١٦٣ ، الترجمة الانجليزية ، حـ ١/٢٠٥ وهى بعنوان :
"History of the World Conqueror", translated by : Prof., J. A. Boyle.

د ــ لباس المرأة المغولية المسلمة :

بعد أن خرج المغول من عزلتهم فيما وراء جبال الطاى غرباً ، وجبال خنكاى شرقاً ، وبرزوا كقوة دولية سيطرة على مساحات شاسعة من عالمهم فى ذلك الوقت ، نجد أن لباسهم قد تغير بشكل جذرى ، وتطور من حيث النوعية والكمية ، ومن حيث الشكل العام . فقد كان انفتاحهم على عالم وقتهم المتحضر ، ثم ما جنوه من ثراء ــ كأصحاب الغلبة فى تلك المجتمعات ــ نجد أن المرأة المغولية أصبحت بديعة اللباس ، غاية فى التزين والعناية الفائقة بمظهرها ، فأخذت ترفل فى لباس من الحرير الخالص ، يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها ، لا ! بل وله اذيال يرفعها من الأرض عدد من جواريها اللائى يمشين من ورائها لهذا الغرض .

ينطبق هذا ، بشكل أوسع على النساء المغوليات اللواتى خرجن من منغوليا إلى الأراضى الصينية ، أو غرباً إلى ايران وأقاليم القبتشاق والتركستان وما وراء النهر . وحول المرأة المغولية فى الأراضى ، التى أصبحت جزءً من امبراطورية المغول ، فى أقليم القبتشاق ــ وهى أراضى « مملكة القبيلة الذهبية » ، يحدثنا الرحالة المسلم شمس الدين بن بطوطة عن نساء ثلاث طبقات فى المجتمع المغولى الجديد تتميز كل واحدة من هاتيك الطبقات عن الأخرى .

ا ــ أولى تلك الطبقات هى طبقة **نساء الخان المغولى الحاكم** ، فى ذلك الأقليم الواسع الأرجاء ، حيث يقول ابن بطوطه بأن كل ملكة (وهى الخاتون) تركب فى عربة (وهذه العربة بمثابة بيت لها أو أحد من بيوتها العديدة) فتجلس وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى « أُولُون خاتون » أى وزيرة الملكة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى « كُجُك خاتون » أى حاجبة الملكة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار ، يقال لهن البنات ، وهن فائقات الحسن والجمال ، ومتناهيات الكمال فى الزينة ، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما .

أما لباسها ، فيصفه ابن بطوطه قائلاً بأن ثيابها مصنوعة من الحرير المرصع بالجوهر ، كذلك لباس الوزيرة والحاجبة مصنوع أيضاً من الحرير المطرز بالذهب . أما اللباس الذى تضعه هذه المرأة على رأسها ، والذى سبق ذكره ، فيصفه ابن بطوطه قائلاً بأن « الخاتون » تلبس على رأسها « البغطاق » وهو كثير الشبه بتاج صغير ، يناسب رأس المرأة وحجمها ، وقد زين من قمته بريش الطواويس الزاهى الألوان . أما الحاجبة والوزيرة فعلى رأس كل واحدة منهن مقنعة مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر . أما البنات فعلى رأس كل واحدة منهن قبعة مستطيلة ومخروطية الشكل ــ بشكل الأقروف ، وفى أعلاها دائرة ذهبية مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها ، حيث تزيد من تزيينها .

ب ــ **أما نساء الطبقة الثانية** ، فى مجتمع المغول الجديد ، فهن **نساء الأمراء** . ونساء هذه الطبقة كن أيضاً على جانب كبير من الأهمية ، وعلو المكانة . فقد كانت الواحدة منهن تخرج من بيتها لتزور صديقة ، أو لقضاء بعض شؤونها ، أو للتنزه ، أو تنزل من عربتها ، بعد رحلة ، قد تطول أو تقصر ، حسب مسافة الطريق ، وهى كلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وبين يديها أربع جوار ، فاتنات الحسن ، بديعات الجمال ، رائعات اللباس ، وعندما تسير إلى زوجها فانها تذهب ومعها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ، وقد يكون معها منهن نحو ثلاثين جارية من جواريها يرفعن اذيال ثيابها من خلفها ، لئلا تتعرض للمس تراب الأرض ، أو لشىء من وساختها ، حيث يتم رفع اذيال هاتيك الملابس من عرى ملحقة بتلك الأذيال مخصوصة لهذا الغرض ، وفى هذه الحالة تمشى المرأة المغولية تلك وهى متبخترة ، وفى جلال عظيم ، يزداد أو يقل حسب مكانتها ومكانة زوجها .

حـ ــ **أما نساء الطبقة الثالثة ، فهن نساء التجار والباعة ، وأصحاب الأسواق** . وقد شاهدهن ابن بطوطه ، كما شاهد غيرهن . وهنا يحدثنا هذا الرحالة ، قائلاً بأن المرأة ، من نساء هذه الطبقة تكون فى عربة من عرباتها الخاصة ، والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى قد جعلن خصيصاً لرفع أذيال ثيابها وقت نزولها أو تجوالها ، وفى حلها وترحالها . وقد جلست وعلى رأسها « البغطاق » وقد رصع **بالجوهر الثمين** ، حيث قد زين أعلاه بريش الطواويس ، ذى الألوان البديعة ، فتزداد تلك المرأة جمالاً ورواقاً[1] .

(١) ابن بطوطه ، « رحلته » ، ٣٣٩ ــ ٣٣٤ . راجع كذلك : Marco Polo, "Description of the World", Vol. I, 171; also B. Spuler, "History of the Mongol", P : 175.

٣ ــ المسكن فى المجتمع المغولى

ا ــ الشكل الخارجى للمنزل المغولى :

كان المجتمع المغولى ، وما زال معظم سكان منغوليا فى الوقت الحاضر ، مجتمعاً بدوياً ، حيث يعتمد على رعى وتربية حيواناته . فهو مجتمع رعوى بشكل عام ، يعيش حياة التنقل والترحال . لذلك ، فإن الرجل المغولى أوجد لنفسه مسكناً مناسباً لتلك الحياة الغير مستوطنة لبقعة بعينها ، أو مكان مخصوص يقضى فيه حياته مستقراً ، كما يفعل الرجل الذى ربط نفسه بمكان معين من الأرض لحرثها وزرعها، وخصوصاً ما استنبته عليها . لذلك ، فان الانسان فى مجتمع المغول ، إذا ما حل فصل الربيع شرع بعد العدة للتحرك تدريجياً إلى ناحية المناطق الشمالية من البلاد ، وذلك هربا من فصل الصيف ، الذى تكون فيه درجة الحرارة شديدة الإرتفاع ، ولا يكاد يطيق تحملها . لذلك فانه يتحرك بمنازله ، أو بمنزله حسب حالته الاجتماعية ، ومواشيه التى تقل أو تكثر ، حسب ظروفه التى تحكم سرعته أثناء رحلته الاصطيافية ــ أن حق لنا أن نسميها بهذه التسمية . وتتدرج درجة حرارة الجو فى الانخفاض ، حتى تصل قافلته إلى أقصى ما تستطيعه شمالاً ، سعياً وراء اعتدال الجو ، وثَمَّ يعد العشب والكلاء المناسبين ، ثم وفرة المياه ، حيث الأنهار ، والجداول ، والبحيرات ، وفوق ذلك كله اعتدال الجو له ولمواشيه . أما إذا جاء وقت بدأ فيه الجو يميل إلى البرودة ، منذراً بقرب وصول الشتاء ، وبالذات فى أواخر فصل الخريف ، فان المغولى يبدأ رحلة العودة ، حيث يعيد ادراجه متجهاً ناحية الجنوب ، ليقى نفسه وماشيته برد سيبيريا الشتوى القارص ، وهكذا دواليك على هذه الوتيرة من الحياة التنقلية والمترحلة بين الشمال والجنوب .

وعلى العموم ، فان المغولى ــ وحيثما ذهب ــ ولأى غرض كان تنقله ذاك أو رحلته تلك ، وحتى ان كان ذلك السفر لغرض الحرب ، فانه يصطحب معه منزله محمولاً جاهزاً ، أينما ذهب وحيثما سار .

فالرجل المغولى (أو بالأحرى المرأة المغولية أو هما معاً) يصنع منزله بصفة أساسية من أغصان الشجر ، ويستخدم الأعواد الخفيفة ، ذات الاستقامة ، كمادة أولية فى عمل منزله . فيقوم بتصفيفها ، وحزمها بشكل مرصوص بعضها بجانب بعض ، وفى حالة غاية فى الأحكام المترابط والقوة . فيحيكها بصورة تجعل رؤوس الأعواد مجتمعة فى وسط سقف المنزل بشكل مخروطى ، حيث تنتهى عند أعلاها بكوة ، هكذا ، حتى تنتهى عملية بناء المنزل ، وتكون القاعدة ، التى يقوم المسكن عليها ، دائرة من العصى (أو الخشب) الغلاظ ، حيث أن تلك الأعواد تحبك حبكاً جيداً ، ثم تربط فى تلك العصى بقوة وأحكام . ومن خلال تلك الفتحة أو الكوة العلوية فى سقف المنزل ، التى هى مجمع رؤوس الأعواد ، يدخل الضوء إلى داخل المنزل ليضيئه لساكنيه . وكذلك فان تلك الكوة تخدم غرضاً آخر ، وهو أن دخان نيرانهم الكثيف ينفذ من خلالها ، حيث توقد فى وسط أرضية المنزل ، والذى يزيد من شدة كثافة دخان مواقدهم ان القوم يستخدمون روث الحيوانات بشكل أساسى فى مادة وقود تلك النيران .

ان هذا المنزل ، أو البيت ، شبيه لما رآه وسكنه ابن بطوطه ، أثناء رحلته فى بلاد القبيلة الذهبية فى أقليم القبتشاق ، بل أنه يكاد ينطبق على النموذج العام لمسكن الانسان المغولى ، حيث يقول هذا الرحالة المغربى بأنه أعطى بيت يسمى عندهم (يعنى عند مغول القبيلة الذهبية) « الخرقة »[1] . وهو عصى من الخشب تجمع رؤوسها فتصبح شبه القبة ، وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح ، ويسد متى احتيج إلى سده ، ومنها ينفذ دخان موقدهم[2] .

بعد ذلك ، وكما سبق وذكر هذا ابن بطوطه ، يقوم المرء المغولى بعمل غطاء

(١) هذه الكلمة فى الحقيقة هى « الخركاه » كلمة فارسية تعنى الكوخ ، أو الخيمة ، وقد تعنى السرادق .

(٢) ابن بطوطه ، « رحلة ابن بطوطه » ، ص : ٣٠٠ .

خارجى لبيته ، يصنعه من اللبود الأبيض . ومع هذا ، فهو فى أغلب الأحيان يجعل فوق غطاء منزله من الخارج غطاءً خارجياً آخر ، أى أنه يجعل فوق غطاء بيته المصنوع غالباً من اللبود ، غطاء ثانياً . وهذا الغطاء الآخر يستخدم فيه مادة الكلس ، أو الصلصال الأبيض . بعد ذلك يقوم بذر مسحوق أبيض ، غالباً ما يكون مسحوق العظام ، ليجعل منزله أكثر تلألؤ وأشد بياضاً . وفى بعض الاحايين يجعل المغولى لون منزله من الخارج أسود .

أما المنطقة العلوية ، التى تحيط بالفتحة ، أو الكوة ، وهى مصدر النور والهواء ومنفذ الدخان ، فانهم يزينونها بتشكيلات من الألوان المختلفة ، حيث تجعل منظرها جميلاً . ثم يزين مدخل داره ، والمصنوع ، كما قلنا ، من اللبود ، برسوم وأشكال متعددة الألوان ، تنعكس فيها البيئة المغولية . وغالباً ما تكون تلك الرسومات على شكل طيور أو حيوانات ، بشتى أنواعها ، أو أشجار ، وخاصة من النباتات المتسلقة ، أو مياه ، كالأنهار ، والبحيرات .

قد يقيم المغولى منزله ذاك على الأرض ، وهذه حالة قليلة ، وغالباً ما يكون هذا النوع من المنازل صغير الحجم لكى يسهل عليه رفعه ليوضع على عربة مخصصة ، لنقله أثناء السفر أو التنقل والترحال . ولكنه فى الغالب يقيمه فوق عربة مخصصة . وعندما يرغب فى السفر أو الارتحال من مكانه ذاك ، يأتى ببعض حيواناته ، أمام ذلك المنزل ، ثم يربط مقدمة المنزل (أو العربة المنزلية) ان صح لنا القول بهذا ، فى رقاب أو ظهور تلك الدواب ، وتقوم بجرها وهى مقامة على وضعها . لذلك فهم لا يعانون من بناء منازلهم عندما يحطون رحالهم . وقد يقوم بانزال بيته هذا من على العربة ، فيجعله على الأرض ، وخاصة تلك المنازل التى روعى فيها صغر الحجم عند اشارتها ، حيث يستطيع ذلك ، وبشكل سهل ، لأنه خفيف الحمل صغير الحجم ، وفى هذه الحالة تساعده زوجته ، أو روجاته (اللائى يقمن هن بهذه العملية فى أغلب الحالات ، إذ أن هذا النوع من العمل هو من اختصاص النساء عندهم . أما إذا كان المنزل كبير الحجم ، ويراد وضعه على الأرض ، وهذا بطبيعة الحال عندما

يكون وقت الاقامة لمدة أطول فانه يتساعد على انزاله مجموعة من الناس ، يختلفون فى العدد باختلاف حجم البيت وكبره .

يختلف حجم منزل ، أو منازل ، الرجل المغولى باختلاف مكانته فى مجتمعه وبين قومه من ناحية ، ثم مدى ما يتمتع به من ثروة وجاه من ناحية ثانية . كما يختلف العدد الذى يملكه من هذه المنازل باختلاف العدد الذى يملكه تحت يده من الزوجات ، والاتباع والخدم والحشم . فبعضهم لا يملك إلا منزلاً واحداً فقط ، صغير الحجم مقاماً على عربة صغيرة أيضاً ، وقد يمتلك المرء منهم اعداداً كبيرة من المنازل ، قد يصل إلى أكثر من مائتى بيت ، حسب مكانته وثروته ، كما قلنا آنفاً ، إذ أن لكل زوجة من زوجاته بيتاً أو أكثر ، كما أن لكل جارية ، أو خادم تحت خدمته بيتاً أو بيوتاً . وفى الحقيقة فانه قد يصل عدد البيوت التى تملكها احدى زوجات الرئيس ، أو الخان المغولى إلى أكثر من أربعمائة بيت .

وحول هذا الموضوع ، يحدثنا الرحالة المسلم « ابن بطوطة » ان « الخاتون » (وهو يعنى هنا الملكة زوجة الخان المغولى محمد أزبيك)[1] يمشى وراء عربتها مائة عربة ، فى كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار والصغار ، وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون ، وثيابها ، وأثاثها ، وطعامها ، ومع كل عربة غلام موكل بها ، وهو متزوج باحدى الجوارى ، إذ لا يقبل من لم يكن متزوجاً ان يخدم فى العربات المنزلية تلك[2] .

أما « وليم الربركى » فقد سبق رحالتنا المسلم ابن بطوطه بما يقارب مائة سنة ، فعدد لنا منازل المغول ، إذ يذكر بأن الأمير « باتو » كان يملك ستاً

(١) هو أحد الخانات المغول الذين حكموا مملكة المغول المعروفة فى التاريخ بـ « القبيلة الذهبية » حكم من سنة ٧١٣ هـ/١٣١٣ م إلى سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤١ م . وهم كما نعرف اعتنقوا الاسلام وحكموا وساروا بمنهجه فى شتى مناحى حياتهم .

(٢) ابن بطوطه « رحلته » ، ٣٣٤ . أنظر كذلك : Carpini, "History of the Mongol", Ed., Dawson, P : 8; Rubruck, "The Journey...", 93 - 5.

وعشرين زوجة ، وان لكل زوجة منهن منزلاً كبير الحجم خاص بها ، ولا يدخل ضمن ذلك العدد الكبير من البيوتات الصغيرة الحجم ، التى توضع إلى الخلف من كل منزل كبير[1] . أما من حيث جمال هاتيك المنازل المغولية فيذكر بأنها غاية فى الجمال ، ولعله كان يقصد بذلك النوع الجميل منها تلك التى يمتلكها الأمير « باتو » . ثم يقول بأن المرأة تقوم ببناء بيت خاص بها على عربة . يصف لنا الرحالة الأوربى « وليم الربركى » ذلك المنزل بأنه غاية فى الأحكام ، وأنه عمل متقن ، وأنه فى منتهى الجمال ، بحيث أصبح من الصعب عليه أن يقوم بعمل رسم أو وصف كامل لجمال ذلك المنزل ، الذى تصنعه المرأة المغولية لنفسها ، كما أنه ويتمنى بأنه كان رساماً ، ليرسم لنا شكله الرائع ، ومنظره البديع[2] .

أما حجم المنزل المغولى ، فكما قلنا ، يتراوح ما بين الصغير ، والمتوسط ، والكبير . فالصغير منها يقام على عربة صغيرة يجرها حيوان واحد وهذا الحيوان قد يكون حصاناً ، أو ثوراً ، أو جملاً . أما الكبير منها فقد يبلغ عرضه ، من جانب إلى الجانب الآخر ، ما يقارب تسعة أمتار (أى ثلاثين قدماً تقريباً) . وقد قام السفير القس « وليم » بقياس المسافة التى تفصل بين عجلتى العربة ، من جانب إلى الجانب الآخر ، فوجد أنها حوالى ستة أمتار (أى عشرين قدماً) ، لذلك فالمنزل المقام على عربة من هذا النوع ، يبرز عن عجلة العربة مسافة أكثر من متر ونصف المتر (خمسة أقدام) من على كل جانب من جوانب العربة[3] .

فإذا ما أراد المرء منهم الرحيل من مكان اقامته إلى مكان آخر وأراد أن يستخدمه لهذا الغرض ، حيث تقوم الحيوانات بجر هذه المنازل ، الصغير منها

(١) Rubruck, "The Journey...", 95.

(٢) نفس المصدر ، والصفحة ، وكذلك الصفحة السابقة لها

(٣) نفس المصدر السابق ، والصفحة ، أنظر كذلك Marco Polo, "Description of the World", Vol. 1., PP : 168 - 9; B. Spuler, 'History of the Mongol", P 172

والكبير على حد سواء ، ويختلف عدد هذه الحيوانات المستعملة لجر هذا النوع أو ذاك من المنازل ، باختلاف حجمه . فالمنزل الكبير ـــ مثلاً ـــ قد يُسْتَخدم لجره اثنان وعشرون ثوراً ، حيث يوضع أحد عشر ثوراً ، جنباً إلى جنب ، فى صف عبر حجم عرض العربة ، بينما توضع الأحد عشر ثوراً الأخرى أمام الأولى ، فتجر المنزل بحبال مثبتة بأحكام فى سارية كبيرة جداً ، توضع فى مقدمة العربة ، وهى عادة فى حجم سارية السفينة .. ويقف السائق فى باب المنزل يدير عملية السير أثناء هاتيك الرحلة ، دون عناء يذكر[١] .

عندما يحط المغولى رحاله ، فانه يقيم منازله متجهة على الدوام إلى ناحية الجنوب ، ثم تقوم الزوجة الكبرى (أى الزوجة الأولى) باقامة منزلها فى أقصى الجهة الغربية من المخيم ، ثم يلى منزلها منزل الزوجة التى تحتل المرتبة الثانية ، ثم التى تليها ، ثم التى تليها ، وهكذا ، واحدة تلو الأخرى ـــ حسب درجتها ـــ حتى الزوجة الأخيرة التى يكون منزلها فى آخر المخيم من جهته الشرقية . ويفصل كل بيت عن البيت الآخر مسافة رمية الحصاة . كما يذكر لنا ذلك « وليم الربركى » ، فى رحلته المشهورة تلك ، ويجعل بيت سيد المخيم إلى الناحية الشمالية من منازله ، وبيوت النساء إلى الناحية الشرقية ، أى إلى اليسار من رجالهن عندما يجلس أحدهم فى داره ، وهو متجه إلى الجنوب ، وتقام منازل الرجال فى ذلك المخيم إلى الجهة الغربية ، أى إلى اليمين من منزل الرئيس . بناءً على ذلك ، فان منازل الرجل المغولى ، وخاصة الأمراء وعليه القوم ومشايخ العشائر ، تبدو وكأنها مدينة ، ولكنها قليلة السكان من الرجال[٢] .

هناك نوع آخر من بيوت العربات ذات الحجم الصغير ، حيث يقوم بجر هذا النوع حيوان واحد فقط ، جواد أو جمل ، أو غيرهما ، ولكن غالباً ما

(١) Rubruck, "The Journey...", 94.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة . وقد طلق كلمة « أوردا Orda » على ذلك المخيم المغولى . وهذه الكلمة « أوردو Ordo » كلمة تركية مغولية ، تطلق على مناطق نفوذ هذا الرجل ، أو ذلك الأمير ، أو أراضى ومساكن العشيرة المغوليين .

يكون جملاً ، وهذا النوع من العربات المنزلية مخصوص لنقل الفراش ، واللباس ، وما غلى ثمنه ، من أنواع الزينة ، من ذهب وفضة ، وغير ذلك . ويوضع هذا النوع من حاجيات المغول فى صناديق يصنعونها أيضاً من فروع وأغصان الأشجار ، ذات الاستقامة خصيصاً لهذا الغرض . ثم يصنعون لكل صندوق غطاءً أو سقفاً مدوراً ، من نفس تلك الأعواد ، والعصى الصغيرة ، ثم يجعلون لها باباً صغيراً فى نهايته من الامام ، وبعد ذلك يغطونه بلبد أسود اللون ، ومبلول إما فى حليب الغنم ، أو بالودك (وهو الدهن الذائب من شحم الحيوانات ـــ أو الحميس) وذلك لتحمى محتويات ذلك الصندوق من أن يصلها المطر ، أو أن تبتل بالماء ، عند عبور نهر أثناء السفر أو التنقل والترحال .

يقوم المغول بتلوين هذه الصناديق برسوم وصور ذات ألوان زاهية ، وأشكال مختلفة . ويجعلون هذه الصناديق فى تلك العربات المنزلية حيث يقومون بربطها بأحكام ، وتمثل تلك العربات حرزاً مكيناً لها ، فلا تنزل عند حط الرحال ، وانما تظل داخل العربة ، وتؤخذ الأشياء أو الحاجيات من داخل تلك الصناديق ، وتعاد على حالها السابق ، كما كانت عليه ، بكل سهولة ويسر ، وذلك من خلال أبوابها الموجودة فى الأمام[٢] .

تصنع هذه العربات بشكل عال بخلاف بقية العربات ، وذلك لتناسب ربطها فى ظهور الجمال التى تقوم بجرها ، ثم لئلا يصلها الماء عندما يعبر المغول نهراً ما ، أثناء الترحال ، من مكان إلى آخر .

وفى الحقيقة ، فان المغول لا يعتبر رجلاً مسافراً عندما ينتقل من مكان إلى آخر ، فهو مسافر ، وهو فى نفس الوقت مقيم ، لأنه يسكن داخل منزله الذى تحمله العربات وتجره الدواب (خيول ، أو أبقار ، أو جمال) ، فهو « ... ،

(١) Rubruck, "The Journey. ". 94.

(٢) Ibid., P : 94.

يتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب ، وهو فى حال سيره ، والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت ... »[1] .

وإذا ما كان المغول فى حالة السفر ، فانهم فى أغلب الأحيان يسيرون فى شكل مجموعات ، شبيه بالقوافل الاسلامية فى درب الحجاز ، يرحلون وقت صلاة الفجر ، وينزلون فى وقت الضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون فى وقت العشى ، وإذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر من على العربات ، وسرحوها للرعى ليلاً أو نهاراً[2] .

وعندما يحط المغول الرحال فانهم يضعون واجهات منازلهم بالشكل الذى أوضحنا أعلاه ، حيث يقومون بترتيب تلك العربات المنزلية ، والمخصصة لحمل الصناديق الخاصة بأشيائهم الثمينة ، صفين من المنازل ، والعربات الأخرى ، وتبدو وكأنها بين حائطين[3] . وكلما كثر عدد زوجات الرجل المغولى ، وزاد ثراؤه كلما ازدادت منازله من هذا النوع وذاك . لذلك فانه يبدو مخيم رجل موسر وكأنه مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء . كما أن تلك المخيمات غالباً ما تكون كثيرة النساء والاتباع ، وقليلة الرجال جداً[4] .

بعد مضى أكثر من مائة سنة من رحلتى « جون البلانو الكربينى ووليم الربركى » يصف لنا الرحالة المسلم « ابن بطوطه » المنزل المغولى الذى يقام للسكنى فى أقليم « الدولة الذهبية المغولية » ذلك الوصف الذى لا يكاد يختلف عن ذلك المنزل ، الذى كان يسكنه المغول ، فى موطنهم الأصلى ، فى منغوليا ، منذ مئات السنين . ويبنى البيت على شكل قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض ، بسيور من الجلد الرقيق ، ثم يجعل على عربة خاصة لحمله فى

(١) أنظر ، ابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطه ، ص : ٣٣٤ ، أنظر أيضا الصفحات : ٣٣٠ ــ ٣٣١

(٢) نفس الحواشى الثلاث السابقة ، ونفس الصفحات .

(٣) Rubruck, "The Journey...", 94.

(٤) Ibid, P : 95.

الحل والترحال ، حيث أنها خفيفة الحمل . ثم تكسى من الخارج باللبود أو الملف ، وهو من الجوخ ، ويكون فيها طبقات مشبكة ، أى شبابيك عليها ستار مخلخل ، بحيث يستطيع من يجلس فى داخل هاتيك المنازل من رؤية الناس فى الخارج ، فى حين لا يستطيع أحد أن يرى من فى داخل تلك المنازل . وهى تنقل على عربات ، ذات عجلات ، بحيث يكون لكل عربة منها أربع بكرات كبار . ومن هذه العربات ما يجره جوادان ، أو فرسان ، ومنها ما يجر بأكثر من ذلك . كما تجرها أيضاً البقر والجمال ، حسب حال العربة الواحدة ، من حيث حجمها ، ومن حيث ثقلها أو خفتها . أما السائق فانه يركب فى مقدمة العربة ، على سرج معد ومريح ، وفى يده سوط يحثها به للمشى قدماً ، وعود كبير يوجهها به إذا ما عاجت عن القصد ، أو انحرفت عن الوجهة التى يريدها .

وقد شاهد « ابن بطوطه » قافلة مغولية من هذا النوع ، تنتقل من مكان إلى آخر ، فيصفها لنا قائلاً : « وأقبلت المحلة[1] ، ويسمونها الأرد[2] ، بضم الهمزة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعداً فى الهواء ، وهم يطبخون فى رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل نزَّلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت[3] .

(١) يعنى قافلة الركب عندما يرتحل القوم بمنازلهم ويحلون فى مكان جديد .

(٢) مر معنا سابقا كلمة « أوردو » وليس « أرد » كما ذكرها ابن بطوطه . وهى كلمة تركية مغولية ، تعنى المخيم وساكنيه ، أو موطن قوم ينزلون فى مكان معين . وعادة تطلق على كل مخيم مغولى تحت رئاسة احدى زوجات أمير ما . وقد عمم معناها هنا ، فشملت كل الركب وما حمل . كان « بركه خان » (٦٥٥ ــ ٦٦٥ هـ/١٢٥٧ ــ ١٢٦٦ م) أول مغولى أسلم ، وقد نشر مغول « أقليم القبجاق » الاسلام ، وأضحى سكان هذا الأقليم مسلمين . وقد زار ابن بطوطه ذلك القطر المسلم أيام السلطان محمد أوز بك التاسع .

(٣) أنظر رحلة ابن بطوطه ، ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ .

ب ــ الشكل الداخلى للمنزل المغولى :

للبيت المغولى صفة معينة ، وترتيباً خاصاً يظهر به من الداخل ، لذلك فان ترتيب أى منزل ينطبق بحذافيره على المنازل المغولية الأخرى فى شتى أنحاء أقاليم منغوليا . سواء أكان ذلك قبل خروج المغول من عزلتهم التى كانوا يعيشونها ، أو فيما بعد ذلك . فلو دخل المرء بيتاً واحداً ثم ذهب إلى بقية المنازل الأخرى لوجد نفس النظام ، وعين الترتيب ، كلها على وتيرة واحدة ، وشكل موحد ، حيث يقوم المرء المغولى بتقسيم منزله من الداخل إلى أقسام معينة كل قسم منه مخصص لأداء غرض معين من الأهداف الاجتماعية هناك ، فنجده خصص لكل قسم من أسرته ، أو ضيوفه ، أو خدمه ، أو أطفاله ، أو حاجياته ، أو أمتعته ، أو حيواناته ، مكاناً معيناً فى داخل ذلك المنزل . فلو تصورنا المنزل على شكل خيمة كبيرة مدورة الشكل ، حيث هو الطابع العام للمنازل المغولية ، يفتح بابها إلى الجوانب ، إذ قد تكون هذه الظاهرة الاجتماعية من أهم مميزات منازل المجتمع عندهم ، وجعلنا أرضها من الداخل أربعة أقسام ، وذلك بوضع خط من منتصف مدخل الباب ، وحتى نهاية الخيمة ، ثم قسمناه بخط آخر من المركز واتجهنا بالخط يميناً ويساراً حتى نهاية المساحة الأرضية ، التى تحتل الخيمة أرضها ، لسهل علينا معرفة نظام منزله من الداخل . فلنبدأ من مدخل الباب ، ونتجه يميناً ثم ندور فى داخله دوره كاملة حتى نخرج من الجهة اليسرى للباب .

عندما يدخل المرء من الباب ، فانه أول ما يجد على يمينه وعلى يساره مكاناً وقد خصص للحيوانات الصغيرة ، كالأغنام ، والماعز ، ... الخ . يليها مباشرة مكان جعل مجلساً للخدم والفقراء ، توضع الأوانى والأمتعة المنزلية إلى الجهة اليمنى مجاورة لحافة المنزل ، ثم يجلس أمامها النساء من أهل البيت ، يقابله من اليسار فى الناحية الثانية مكان خصص لجلوس الرجال ، وهو يقع فى الجهة الثانية المعاكسة . أما النساء الزائرات فقد جعل لهن مكان أمام النساء الجالسات إلى اليمين حيث يقابله من الجهة الثانية من البيت ، أى إلى اليسار ، مكان

خصص مجلسا للرجال . أى أنهم يجلسون أمام الرجال من أهل البيت ، كنوع من اكرام الضيف ، أو الزائر ، وذلك باجلاس الزائرين ، رجالاً كانوا أم نساءً ، فى مقدمة صفوف الجالسين من أهل البيت . أما موقد النار ، فانه يحتل المركز الوسط من البيت المغولى . ثم يلى المساحة المخصصة لموقد النار ووقودها ، مكان جعل لجلوس الأقارب ، ثم بعده مكان الأطفال ، ثم مكان جلوس المضيفة (أى صاحبة المنزل) ، ثم يليه مكان المضيف (أى صاحب البيت) . يقابل هذين المكانين المخصصين لرب البيت وسيدته ، فى الجهة المقابلة ، مكان مخصص لضيف الشرف من الزائرين لهذه الأسرة ، حيث يقع هذا المكان إلى اليمين من مجلس صاحب الدار ، عند جلوسه وهو متجه إلى ناحية الجنوب ، إذ أنه يجلس على هذه الهيئة على الدوام . أما المكان المخصص للمخدع (أى فراش النوم) فهو فى آخر أرضية المنزل . ثم إلى الخلف ، من المكان الذى جعل لضيوف الشرف ، توضع الحقائب ، والأمتعة الجلدية ، والمواد الغذائية ، وإلى الخلف منها تعلق تماثيل الآلهة[١] .

يعلق المغولى صورة مجسدة تتدلى من أعلى المكان الذى يجلس فيه صاحب الدار ، ويسمى هذا التمثال « أخو صاحب المنزل » ، كما يعلق فوق المكان الذى تجلس فيه صاحبة المنزل تمثالاً آخر على نفس النمط ، ويسمى « أخو صاحبة المنزل » . ويعلق فى الوسط بين هذين التمثالين ــ وإلى الأعلى منهما ، تمثالاً ثالثاً أقل سماكة وحجماً من التمثالين الآخرين . ويعتبر المغول الوثنيون أن هذا التمثال الصغير هو الحارس لجميع البيت ومحتوياته[٢] .

وعلى العموم ، فانه يمكن أن نعتبر النصف الأيسر من البيت (أى عندما يكون الاتجاه إلى ناحية الجنوب) مكاناً مخصصاً لجلوس النساء ، سواء أكن من نساء ومحارم صاحب الدار ، أو من النساء الزائرات ، فى حين نجد أن النصف الأيمن ، من ذلك المنزل قد جعل مكاناً خاصاً للرجال ، سواء من أهل

---

(١) Rubruck, "The Journey...", P : 95.

(٢) Ibid. P : 95.

الدار ، أم من الرجال الزائرين . أن سيدة البيت ، فى المجتمع المغولى ، يكون لديها مسند ، أو مخدة ، مصنوعة من جلد الماعز ، ومحشوة من الداخل ، أما بالقش الناعم ، وأما بصوف الأغنام أو بشعر الماعز الناعمين ، حيث تجعله فى مكان مرتفع قليلاً ، وعليه تمثال صغير متجهاً ناحية النساء[١] .

يوضع عند المدخل إلى قسم النساء تمثال ومعه مجسدة لضرع بقرة ، وهذا التمثال خاص بالنساء اللواتى يقمن بحلب وضرب الأبقار ، لأن هذه المهمة تعتبر من وظائف النساء . كما يوضع عند المدخل إلى قسم الرجال تمثال آخر ، ومعه تمثال لضرب فرس ، وهذا التمثال مخصص للرجال الذين يقومون بحلب وصرب الأفراس ، حيث أن هذه العملية غالباً ما يقوم بها الرجال[٢] .

عندما يجتمع المغول على شراب ، فانهم ينثرون النضحات الأولى من شرابهم لتلك التماثيل ، فيبدأون أولاً بالنضح على ذلك التمثال المتدلى من على رأس سيد الدار على اعتبار أنه كبير التماثيل ، لوضعه متدلياً فوق مجلس رب المنزل ، ثم التماثيل الأخرى بالدور ، وعلى التوالى واحدا بعد واحدة حسب مكانة هذا التمثال ووضعه بين التماثيل المغولية الأخرى . بعد هذا يخرج الخادم إلى خارج المنزل يحمل كأساً وبه شراب ، فينضح بشىء منه ثلاث مرات إلى ناحية الجنوب ، مع ثنى ركبته فى كل مرة عندما ينضح ، ويعتبر ذلك النضح بالشراب إلى جهة الجنوب تشريفا للنار . ثم يكرر الخادم نفس الحركة تلك باتجاه الشرق ، تشريفاً للهواء ، ثم إلى الغرب ، تشريفاً للماء ، ثم إلى الشمال تشريفاً للموتى . ثم بعد الانتهاء من هذا النوع من الطقوس يعتبرون أن الالهة قد أخذت نصيبها من ذلك الشراب ، وقد شرفوا الهواء والماء واسلافهم من الموتى ، وهنا يشرعون فى احتساء الشراب ذاك[٣] .

---

(١) Ibid. P . 95 - 6.

(٢) Ibid. P : 95 - 6.

(٣) Ibid. P : 95 - 6.

قائمة مصادر البحث ومراجعه

أولا : المصادر :

١ ــ المصادر الاسلامية ، العربية والفارسية :

١ ــ ابن الاثير ، عز الدين على بن أبى الكرم ، « الكامل فى التاريخ » ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م (عربى اللغة) .

٢ ــ ابن بطوطه ، أبو عبد الله محمد « رحلة ابن بطوطه » ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م ، (العربية ، ولها ترجمات إلى لغات شتى منها الانجليزية) .

٣ ــ الجوينى ، علاء الدين عطا ملك ، « تاريخ جهانكشاى » أو « تاريخ فاتح العالم » تحقيق الأستاذ المرحوم ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ هـ/١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧ م (فارسى اللغة) .

٤ ــ رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة ، « جامع التواريخ » ، جزءان ، تحقيق د . بهمن كريمى ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش . (فارسى اللغة) ، وله ترجمات إلى بعض اللغات منها الروسية والانجليزية والعربية وغيرها .

٥ ــ ابن العبرى ، كريكورى أبو الفرج الملطى « تاريخ مختصر الدول » أو « مختصر تاريخ الدول » تحقيق صاليحانى ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ترجمة المؤلف ابن العبرى من لغته الأصلية السريانية إلى اللغة العربية .

٦ ــ القزوينى ، حمد الله المستوفى ، « القسم الجغرافى من كتاب (نزهة القلوب) ترجمه إلى الانجليزية المستشرف ج . لوسترنج ، ليدن ١٩١٣ م . (الفارسية مترجم إلى اللغة الانجليزية) .

٧ ــ مجهول المؤلف ، « التاريخ السرى للمغول » ، أو « تاريخ سرى

مغولان » ، ترجمته عن الفرنسية الدكتورة شيرينى بيانى ، طهران ، ١٣٥٠ هـ . ش . (الصينية مترجم إلى الفرنسية ومنها إلى الفارسية) .

ب ــ مصادر بلغات غير اسلامية (الانجليزية والمترجمة إليها) :

٨ ــ Benedict, Brother, "The Narrative" Ed., by : Ch. Dawson, Under the title "The Mongol Mission", London and New York, 1955.

٩ ــ Carpini, John of Plano, "History of the Mongols" Ed. by : C. Dawson, Entitled : "The Mongol Mission", London and New York, 1955.

١٠ ــ Jawaini, 'Ata Malik, "The History of the World Conquoror" Translated from Persian into English by : Prof. J.A. Boyle, Manchester University Press, Manchester, 1958.

١١ ــ Polo, Marco, "The Description of the World", translated and editted by : Ch. Moule and Paul Pelliot, London, 1938. Vol. 1.

١٢ ــ Rashid al-Din, Fadl allah, "The Successors of Genghis Khan", translated from the Persian by Prof. J.A. Boyle, New York, 1971.

١٣ ــ Rubruck, Friar William, "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World, 1253 - 1255, with two accounts of the earlier journey of John of Pian De Carpine, W. W. Rockhill, London, 1967.

١٤ ــ Rubruck, F. W. "The Journey of William of Rubruck" with the title : The Mongol Mission, Editted by Ch. Dawson, London and New York, 1955.

١٥ ــ Unknown, "The Secret History of the Mongols" translated from the Chinese by Aurther Wally, London, 1963.

ثانيا : المراجع الحديثة :

ا ــ مراجع باللغة العربية :

١٦ ــ الغامدى ، سعد محمد حذيفه « سقوط الدولة العباسية » بيروت ١٤٠١ هـ .

١٧ ــ « معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها » مجلة العصور ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، جمادى الأولى ، ١٤٠٧ هـ ، ص . ص : ٧٥ ــ ٩٤ .

ب ــ المراجع باللغة الانجليزية :

١٨ ــ Barthold, W. W. "Four Studies on the History of Central Asia" Leyden, 1962.

١٩ ــ De Rachewilts, Igor, "Papal Envoys to the Great Khans", London, 1971.

٢٠ ــ Micheli, Silvio, "Mongolia in Search of Marco Polo and other Adventures", translated from the Italian by : Bruce Penman, London, 1967.

٢١ ــ Newton, A.P. "Travel and Travellers of the Middle Ages", London, 1930.

٢٢ ــ Petrov, V.P. "Mongolia, A Profile", London, 1970.

٢٣ ــ Ross, Sir E.D. "Prester John and the Empire of Ethiopia", Travel and Travellers in the Middle Ages, Ed., by Newton, London, 1930, PP : 174 - 194.

حتى نهاية حكم غازان خان ، تحقيق/ب . كريمى ، طهران ، ١٣٣٨ هـ ش .

— رشيد الدين (موليز ، د . ج . ميتلند) ، « دراسة وترجمة جامع التواريخ لمؤلفه رشيد الدين فضل الله الخاص بالقبائل التركية والمغولية » : أطروحة قدمها موليز إلى جامعة لندن ، مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية ، لندن ، ١٩٥٧ م لنيل درجة الدكتوراه . — فارسية ترجمة انجليزية

— خواند أمير ، غياث الدين بن همام الدين ، « تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد بشر » ، تحقيق/م . د. سياقى ، طهران ، ١٣٣٣ هـ . ش . — فارسية

— ابن العبرى ، كريكورى أبو الفرج ، « تاريخ مختصر الدول » ترجمه المؤلف من اللغة السريانية إلى العربية حققه ، صالحيانى ، ببيروت ، ١٩٥٨ م . — السريانية وترجم إلى العربية

— القزوينى ، حمد الله المستوفى ، « التاريخ المختار ، أو التاريخ المنتخب تاريخ كزيده » تحقيق نوائى ، طهران ١٣٣٩ هـ . ش . ، ترجمه إلى الانجليزية الأستاذ الدكتور/أى براون ، لندن ، ١٩١٣ م . — فارسية وله ترجمة انجليزية

— (مجهول المؤلف) ، « تاريخ المغول السرى » ، « تاريخ سرى مغولان » ترجمته من الطبعة الفرنسية (طبعة باريس ، ١٩٤٩ م) إلى اللغة الفارسية الدكتورة شيرين بيانى ، طهران ، ١٣٥٠هـ.ش — صينيه مترجم إلى الفرنسية ومنها إلى الفارسية

— (مجهول المؤلف) ، « شجرة الأتراك » حققه وترجمه إلى الانجليزية ، الكولونيل ميلز ، لندن ، ١٨٣٨ م . — الفارسية مترجم إلى الانجليزية

— المقريزى ، تقى الدين أحمد ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، بيروت ، دار صادر ؟ — عربية

— ميراخواند ، محمد بن خواندشاه ، « تاريخ روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء » ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش . — فارسية

— النسوى ، شهاب الدين محمد المنشىء ، « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » ، تحقيق حافظ حمدى ، القاهرة ، ١٩٥٣ م . — عربية

— وصاف الحضرة ، شرف الدين عبد الله أو (شهاب الدين عبد الله) ، « تاريخ وصاف » المعروف أيضا بـ « كتاب تجربة الأمصار وترجية الأعصار » تحقيق عبد المحمد آيتى ، طهران ، ١٣٤٦ هـ . ش . — الفارسية

حـ ــ مصادر بلغات غير العربية :

Bar Hebraeus — Gregory Abu al-Faraj : "The Chronography", translated from the Syriac by Ernest A. Wallis budge, Oxford University Press, London, 1932.

Beazley — C.R.: "The Chronicle of Novgorod", translated from Russian by : R. Michell and N. Fobers, London, Camden Society, Volume XXV, 1914.

Benedict — Brother : "The Narrative", Ed. by : C. Dawson, Under the title "The Mongol Mission", London and New York, 1955.

Carpini — John of Plano : ''History of Mongol'', (HM)m Ed. by : C. Dawson, entitled : ''The Mongol Mission'', London and New York, 1955.

Carpini — Johan De Plano and William De Rubruquis : The Texts and Versions, Ed. by : C. Raymond Beazly, London, 1903.

De Bridia — C. Friar : ''The Vinland Map and the Tartar Relation'', Edited and translated by R. A. Skelton, T. E. Marston and G. D. Painter, for the Yale University Press, 1965.

Grigor — Grigor of Akane : ''History of the Nation of the Archers (The Mongol)'', (HNAM), Edited and transleted by : R. Blake and R. M. Frye, Harvard University Press, 1954.

Paris — Matthew : ''English History'', Translated from the Latin by the Rev. J. A. Giles, D. C. L., London, 1668.

Polo — Marco : ''The Travels of Marco Polo'', translated into English from the text of L. F. Benedetto by Proffessor Aldo Ricciwith an introduction and index by Sir E. D. Ross, Edinburgh, 1931.

Polo — ''The Book of Ser Marco Polo'', Translated by Sir H. Yule London, 1926.

Rubruck — Friar William . ''The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World'', 1253-55, with two accounts of the earlier journey of John og Pian De Carpine, W. W. Rockhill, London, 1900, reproduced in 1967.

Rubruck — The Journey of William of Rubruck'', with the title : ''The Mongol Mission'', Edited by C. Dawson London and New York, 1955.

Unknown — ''The Secret History of the Mongols'', Eng, tr., by : A. Waley, London, 1963.

ثانيا : مراجع منشورة حديثه :

ا ــ مراجع عربية :

ــ حذيفه الغامدى ، سعد محمد ، « أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى » ، العربية بيروت ، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م .

ــ « سقوط الدولة العباسية » ، بيروت ، ١٤٠١ هـ العربية

ــ « حياة جنكيز خان » تأليف فلادمير تسوف ، ترجمه من الروسية إلى الانجليزية ، ميرسكى ، وترجمه « سعد حذيفه الغامدى » من الانجليزية إلى العربية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ

ــ كتاب مخطوط تحت الطبع بعنوان « بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية » .

ب ــ مراجع حديثة غير عربية :

Ayalon — ''David : The Great Yasa of Chingiz Khan'', SI., 1971, Vol. XXXIII, pp. 97-140 and Vol. XXXIV, pp. 151-180.

Barthold — W. ''Turkestan down to the Mongol invasion'', Gibb Memorial Trust, New Series, V, London, 1968, reprinted in 1977.

Dupuy — T. N.: ''The Military life of Genghis Khan of Khans'',: New York, 1969.

Fox — Ralf : ''Genghis Khan'', London, 1936.

Riasanovsky — V. A.: ''Fundamental Principles of Mongol Law''. Indiana, 1965.

Spuler — Bertold : ''The Muslim World, The Mongol Period''. translated from the German by F. R. C. Bagley, Leiden, 1969.

Vernadsky G.: "The Dcope and Contents of Chingis-Khan's Yasa, HJAS", 1938, 3/pp. 337-360.

Vladimirtsov B. Ya.: "The Life of Chingis-Khan", Translated from Russian by Prince D. S. Mirsky, London, 1930.

Walker C. C.: "Jenghiz Khan", London, 1939.

جوانب من حياة المغول المعيشية

د . سعد بن محمد حذيفه الغامدى

أستاذ مشارك

قسم التاريخ ــ جامعة الملك سعود

الرياض

حرر فى : ١ شعبان ١٤٠٨ هـ

٩ مارس ١٩٨٨ م

١ ــ غذاء الانسان فى المجتمع المغولى

مقدمـــة :

حينما برز جنكيز خان على مسرح أحداث التاريخ ، فى الجهة الشرقية من قارة آسيا ووسطها ، ثم فى غربيها فيما بعد ، كان الانسان المغولى يعتبر فى قائمة الانسان البدائى ، فى جميع مناحى شؤون حياته ، وخاصة ما يتعلق بأكله وشربه . ويعتبر ذلك جزءً من التقليد والعادة التى درج عليهما ، فقد ظل على هذا المنحى حتى بعد أن إحتك بعالم زمانه المتحضر ، وذلك فى أواخر القرن السادس للهجرة/الثانى عشر للميلاد . فعلى الرغم من اتساع رقعة دولتهم ، والتى شملت كافة أقاليم وشعوب الأمم الأسيوية تقريباً ، ومدت نفوذها إلى أقطار أوربا الشرقية والوسطى ، إلا أن مسألة التحضر والتطور فى نوعية ، وطريقة أكله وشربه ، لم يطرأ عليها تغيير كبير ، فى مجتمع المغول ، فى موطنهم الأصلى ، وحتى العصر الحديث . فما كان ينطبق عليهم ، فى أيام جنكيز خان ، نجده يتمثل فى كثير من مجتمعاتهم فى هذا القرن ، وخاصة بين أوساط مجتمعاتهم البدوية ، فيما بين القبائل التى تسكن المناطق شبه الصحراوية ، أو فى مناطق الغابات ، والأدغال . لذلك فالقارىء لأى تقرير عنهم فى العصر الحديث يجد أن الحياة الاجتماعية والناس لا يكادون يختلفون عما يقرأه عنهم فى كتابات المؤرخين ، والرحالة ، فى زمن جنكيز خان وأبنائه وأحفاده من بعده ، قبل سبعة قرون مضت . فهو مجتمع بدوى ، إلى البدائى أقرب منه إلى الانسان الأكثر تمدنا . إذ أنه يعتمد كلية على حيوانه ، الذى يقوم على تربيته ، ويحلبه ويصربه ، أو الذى يصيده للحمه وجلده وفروته ، للأكل وللباس[١] .

---

(١) صنف فى أواخر الثمانينات من القرن الهجرى الرابع عشر الماضى عن المغول فى الوقت الحاضر وهو يصف المغول ، وحياتهم . فلا تكاد تجد فرقا بين ماضيهم وحاضرهم . والكتاب هو :
"Mongolia in Search of Marco Polo and other adventures" for Micheli Silvio in Italian Language translated into English by : B. Penman, London, 1967.

لذلك فإننا سنتطرق فى الصفحات القليلة التالية من هذه الدراسة إلى جزء من حياة المجتمع المغولى ، وهذا الجزء هو أهم مقومات الانسان ، ألا وهو « طعام المجتمع المغولى وشرابه » . يقول المؤرخ المسلم ، الذى عاصر المغول ، وزحفهم ضد العالم الاسلامى ، عز الدين بن الأثير ، فى معرض كلامه عنهم بأنهم : « ... ، ولا يحرمون شيئاً ، فانهم يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب ، والخنازير وغيرها ... »[1] .

لقد أصاب مؤرخنا ، فيما رواه عن المغول ، بل أنه لم يذكر شيئا يأكله المغول ، سواء من لحم الكلاب ، والخنازير ، حيث ربما أنه لم يكن يتصور بأنهم يأكلون لحوم البشر ، بل وحتى مشيمة الحيوان بعد الولادة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، كما سيرد معنا بعد قليل ، وهذا ما يحدثنا به رجل عرفهم من على قرب ، وتعامل معهم ، وعاش بين ظهرانيهم ، وهو « John De Plano De Carpini » . حيث يقول بأن طعامهم يتكون من كل شىء يستطيعون أكله ، فهم يأكلون الكلاب ، والذئاب ، والثعالب ، والخيول ، وعندما تجبرهم ظروف الجوع والضرورة ، فانهم يقتاتون على لحوم البشر . ثم يردف « جون الكربينى » روايته تلك من أنهم ، أثناء الفترة التى كانوا يحاصرون « الخطا »[2] ، نفدت عليهم المؤن الغذائية ، واستمر حالهم على ذلك لمدة طويلة . وعندما لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، شرعوا يأخذون من بينهم رجلاً من كل عشرة رجال . ثم يذهب هذا السفير البابوى إلى رواية أبعد من هذه بكثير ، فيقول بأنهم يأكلون ما يخرج من أنثى الخيل (الفرس) من أوساخ عندما تلد مهرها ، يعنى المشيمة وغيرها . بل ليس هذا فقط ، فقد شاهدهم يأكلون القمل ، ويذكر بأنه عندما يسأل بعضهم عن ذلك كانت اجابته :

(١) عز الدين بن الأثير ، « الكامل فى التاريخ » بيروت ، دار صادر ، حـ ٩/٣٦٠ .

(٢) يقصد بذلك أثناء حصار المغول عاصمة امبراطورية « جن » شمال الصين ، وهم الذين عرفت أراضيهم لدى الأوربيين فى ذلك الوقت بـ « الكاثاى Cathay » . وقد غزاهم جنكيز خان ، وأقتحم عاصمتهم « بكين » فى صفر عام ٦١٣ هـ/حزيران ، يونيه سنة ١٣١٥ م . راجع ذلك فى كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ، ص : ٧٨ وبعدها ، وما ورد فى تلك الصفحات من الحواشى .

« لماذا لا أكل القمل ، فى حين أن يتغذون على لحم ابنى ويمصون من دمه » . ويذكر بأنه شاهدهم يأكلون الفئران[1] .

أما رواية « ويليم الربركى القس Friar William of Rubruck »[2] فانها تعتبر أكثر تفصيلاً ، فى هذا الموضوع ، من غيره ممن عرف المغول . وقبل أن أتعرض لما ذكره هذا السفير الملكى فى هذا الشأن ، يروق لى أن أشرح للقارىء والباحث الكريمين شيئاً عن هذا الرجل ، وأسباب رحلته إلى منغوليا ، وبعضاً مما قيل عنها .

قام الملك لويس التاسع ، ملك فرنسا فانتدب هذا القس إلى بلاط خانات المغول ، فاستغرقت رحلته حوالى سنتين (٦٥١ ــ ٦٥٣ هـ/١٣٥٥ م) . فهو ممن عاصر المغول ، وسكن معهم فى عاصمتهم « قرا ــ قروم » وغيرها لفترة كافية ، عرَّفته عليهم عن كثب ، وأصبح ما كتبه عنهم ، فى رحلته إليهم ، من أهم مصادر معلوماتنا التاريخية ، والعلمية بشكل عام . لقد حاول « I. De. Rachewiltz » فى مصنف له أن ينفى دور الملك لويس التاسع فى مسألة ارسال ذلك القس ، إلى مهمة سياسية ، كان الغرض منها توحيد الجهد مع المغول ضد المسلمين وأخذ بيت المقدس منهم : والمصنف بذلك أراد نفى الرأى الشائع بين المؤرخين فى هذا الخصوص . ومع ذلك ، فان الحقيقة تبدو جلية فى ناحيتين :

١ ــ أن هذا القس كان مصاحباً للملك الفرنسى فى حملته الصليبية الفاشلة ، والتى بدأت بمصر ، فكان نصيبه الأسر ، بعد هزيمة جيشه على أيدى المماليك . ورغم كرم المسلمين باطلاق سراحه ، فقد كان حقده دفيناً على المسلمين ، ولو جاءه شيطان لتحالف معه ضدهم . لذلك فقد أرسل « لويسُ » « القسَ ويليمُ » لأنه يحمل نفس الروح العدائية

(١) Carpini, "History of the Mongol", Ed., Dawson, PP : 16.

(٢) فيما يتعلق بمصنف هذا السفير ، أنظر كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص . ص : ٣٩ ــ ٤٠ .

للمسلمين ، ليكون رسوله إلى خانات المغول ، لعله يجد عندهم ما كان يبتغيه ، وذلك لايجاد حلف شرقى وغربى ضد المسلمين[1] .

٢ ــ أن هذا المصنف قد ناقض نفسه فى ناحيتين :

ا ــ اثبات صحة صحبة القس لذلك الملك القس هو الآخر ، وهذه حقيقة لا يمكنه انكارها ، أن هو حاول ، ثم بقاؤه مع الملك فى فلسطين حتى سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م ، أى أن ذلك يعنى أنه ظل مع الملك قرابة أربع سنوات (٦٤٦ ــ ٦٥٠ هـ/١٢٤٨ ــ ١٢٥٣ م) ، فلا يمكن أن يذهب ذلك القس إلى منغوليا ليجد أو يبحث عن فلان أو علان من رجال الدين المسيحيين ، ممن كان قد ذهب إلى منغوليا ، ولم يعد ، فى محاولات لتنصير المغول ، وعقد أحلاف معهم . وقد عرف ما آلت إليه رحلات السابقين من الفشل الذريع ، وهذا ما ذكره هذا المصنف أثناء كلامه عن رحلة « الكربينى » فى نفس الصفحة .

ب ــ لقد ذكر المصنف أن الملك قد وصلته أنباء تفيد أن أميراً مغولياً قد اعتنق المسيحية ، وأن هذه المعلومات قد جاءت إلى الملك من جهات مختلفة . على حد تعبير هذا المصنف[3] . لقد كان ذلك الأمير المغولى الذى اعتنق المسيحية ، هو « سرتق بن باتوبن جوجى بن جنكيز خان » . ومن المعلوم جيداً أن مسألة اعتناق هذا الأمير المغولى للمسيحية تعنى وقوف القوم إلى جانب الملك الفرنسى ضد المسلمين . وفى الحقيقة فان فى سفارة ذلك الراهب تكمن مهمة فتح باب

(١) يستطيع القارىء والباحث الكريمان أن يرجعا إلى ما كتبه « ويليم » فى رحلته تلك عن المسلمين فى آسيا الصغرى ، ليطلعا على حقد سيده ، الذى انعكس ذلك فيما كتبه هو فى ص : ٣١٧ . راجع كذلك ما قلناه فى هذا الخصوص فى كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ، ص . ص : ٣٦٣ ــ ٣٦٤ .

(٢) Friar William of Rubruck, "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World, 1253 - 55', with two accounts of the earliar journey of John of Plano De Carpini, Ed., by : Dawson, P : 217.

(٣) I. De Rachewiltz, "Papal Envoys to the Great Khans", London, 1971, P : 125.

المفاوضات معهم لايجاد حلف مع المغول ضد المسلمين . كيف لا ، ونحن نعرف مدى تشبث الأوربيين بأى حليف ضد المسلمين ، فقد انتشرت بينهم أساطير كثيرة ، . وما أسطورة ذلك الملك المسيحى المشرقى ، الذى سيقدم من الشرق ، ويهزم المسلمين ، ويأخذ منهم فلسطين وبيت المقدس ، ذلك الملك الأسطورى هو ما عرف فى مصنفات المؤرخين الأوربيين بـ « بريسترجون Prester John » . وقد طرقنا هذا الموضوع بنوع من التفصيل فى بحث لنا سابق ، كما طرقه مؤرخون أوربيون ، فلا بد أن يكون فى مخيلة « لويس التاسع » صورة ما تزال حية لذلك الملك المسيحى الأسطورى ، الذى سيقدم إليه من الشرق ، ويحالفه ، ويهزم المسلمين[1] .

ب ــ طعام المجتمع المغولى :

نرجع الآن إلى موضوعنا « طعام المجتمع المغولى » ، وإلى ما أورده لنا « القس الراهب ويليم الربركى » فى هذا الشأن ، حيث يذكر بأن طعام ومؤن المغول تتمثل حتى فى الحيوانات الميتة ، وبدون استثناء ، وأن الحيوانات والمواشى ، التى تتوفر بأعداد هائلة هناك بشكل خاص ، كانت تموت وبأعداد كبيرة ، فلا يترددون على الاطلاق فى أكلها . إلا أنهم ، مع ذلك ، لا يهتمون فى فصل الصيف ، بأى نوع من أنواع الأكل أو اللحوم ، أو الحرص فى الحصول عليه ، لأن « الكوزموس Kuzmos »[2] يوجد بكثرة هائلة . لذلك فانهم فى القليل النادر يأكلون لحماً ، بل أن ذلك يترك للظروف ، وحسبما

(١) فيما يتعلق بذلك الملك المسيحى الأسطورى « بريسترجون Prester John » أنظر : "Travel and Travellers of the Middle Ages". Ed., by : A. Newton, London, 1930, Chapter IX. كذلك كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ز ص . ص : ٣١٨ وبعدها : كذلك مقالتنا التى بعنوان : « معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها » مجلة العصور ، ص . ص : ٧٥ ــ ٩٤ فى المجلد الثانى ، الجزء الأول ، عام .

(٢) هو حليب الفرس . لمعلومات عن هذا النوع من الشراب المفضل لدى مجتمع المغول ، أنظر : Rubruck, "The Journey.. ", Ed., Dawson, P : 98.

يتفق ، أى عندما يقدمه إليهم أحد ، أو ما قد يقع تحت أيديهم من الصيد ، أكان ذلك حيواناً ، أم طيراً ، قد يحصل لهم عن طريق الصدفة . أما إذا صادف ومات ثور ، أو حصان ، فانهم يُشرحون لحمه إلى شرائح طويلة ودقيقة ، ثم يعلقونها لتتعرض لضوء وحرارة الشمس ، ولهبوب الهواء ، حتى تُجفف بهذه الطريقة ، دون أن يصبح لها رائحة كريهة ، وحتى بدون أن يضيفوا عليها أملاحاً ، إذ أنها لا تنعدم ولا يصيبها تلف . أما الأمعاء ، فانهم يضعون بداخلها مادة مأكولة ، فيصبح لديهم محشى ، ويتعمدون أكلها طازجة . أما بقية اللحم ، فانهم يحتفظون به إلى فصل الشتاء ، حيث يصنعون من جلود الثيران جراراً عظيمة الحجم ، وذلك بتجفيفها بالدخان ، وبطريقة فنية . كما يقوم المغول بطبخ طعامهم على النار ، حيث يجلسون حولها ، الرجال على طبقاتهم ، من الرئيس ، أولاً ، أو الامبراطور ، إلى الفقير . ويتكون وقود نارهم ، بصفة أساسية ، من روث الأبقار ، والخيول ، وغيرها ، بعد أن يكون جافاً[1] .

يذكر « ويليم » أن الرجل المغولى يمكنه أن يطعم خمسين شخصاً ، وأحياناً مائة ، من لحم شاة واحدة فقط ، حيث يقوم بتقطيعها ، بعد أن يقدها نصفين من الصدر ثم يذبحها من حلقها ، حيث يضع اللحم بعد طبخه فى اناء صغير ، ثم يقطعها برأس سكينته ، أو شوكة مخصصة لهذا الغرض[2] . بعد الانتهاء من ذلك يناول الرجل ، القيم على ذلك العمل ، كل شخص عنده لقمة أو لقمتين ، حسب العدد ، وكمية اللحم المتوفر . إلا أنه لا يشرع فى تقسيم اللحم إلا بعد أن يبدأ برئيس القوم أولاً ، حيث يأخذ الكمية التى يرتضيها ، ثم يوزع الباقى على الحاضرين . أما إذا ما أعطى ذلك الرئيس أحداً قطعة أو شيئاً من ذلك اللحم ، فله أن يأكله ، وله أن يعطى شيئاً منه إلى من يشاء . وإن أراد أن يأخذه معه إلى منزله فله ذلك ، حيث يضعه فى جراب يحمله معه لوضع أشيائه من هذا النوع بداخله . ثم يردف هذا الرحالة والسفير قوله ، أما العظام ، فإن كان لديهم وقت كافٍ فى مجلسهم ذاك ، فانهم يقرضونه

(١) أنظر المصدر السابق ، ص . ص : ٩٧ ــ ٩٨ .

(٢) لمعلومات عن طريقة ذبح المغول لحيواناتهم ، أنظر الجوينى ، « جهانكشاى » حـ ٣٠٦/١ .

بأسنانهم ، ويستخرجون منه المخ ، وإذا لم يكن لديهم ، فى مجلسهم ذلك ، متسع من الوقت فانه يوزع على بعض الحضور ، لأخذه معهم ، وبعضهم يعطيه إلى خادمه ، ان كان موجوداً معه ليحتفظ به له ليقرضه فيما بعد ، ثم يستخرج ما بداخله من المخ قبل اعطاء باقى العظام إلى الكلاب ، وعلى هذا الأساس فان طعامهم لا يتلف منه حتى القليل ، الذى يعتبره الغير من غيرهم من الأمم شيئاً يتلف[1] .

أما « جون الكربينى » فيردف القول ، فى هذا الشأن أن المغول لا يملكون خبزاً ، ولا يأكلون أعشاباً ، ولا فاكهة . فلا أكل لديهم إلا اللحم ، ومع ذلك فلا يأكلون منه إلا بكميات قليلة .

لهذا فلا تستطيع أمة من الأمم ، غيرهم ، أن تعيش على ما يعيش عليه المغول لقلته وزهادته . يتناول المغول أكلهم بأيديهم ، التى تتسخ بالدهنيات أثناء عملية الأكل . وبعد الانتهاء فانهم لا يغسلونها ، بل يمسحونها فى ملابسهم التى يرتدونها ، وخاصة فى ذلك الغطاء أو اللباس المصنوع من الجلد الذى يغطى سيقانهم ، أو فى العشب ، أو ما شابه ذلك . أما القليل منهم ، وخاصة من الناس ذوى المكانة الكبيرة ، فربما يؤتى لهم بقطعة قماش ، فيمسحون بها أيديهم من الدهنيات بعد الانتهاء من أكل اللحم[2] .

وعندما يأكلون بشكل جماعى ، فان الرجل قد يقطع اللحم إلى قطع صغيرة ، فيقدم إلى كل واحد قطعة برأس سكينته ، فيعطى البعض منهم كثيراً أو قليلاً ، تختلف باختلاف مكانة الرجل المُطْعَم[3] .

أما ما يتعلق بغسل الأوانى ، التى يستخدمونها لطهى طعامهم ، فان المغول يضعون اللحم مع المرق ، وبعد ذلك لا يغسلونها . وإن أرادوا تنظيفها فانهم

(١) Rubruck, "The Journey...", P : 98.

(٢) Carpini, "History of the Mongol" Ed., Dawson, P : 16.

(٣) Rubruck, "The Journey...", P : 98.